شرح القواعد الأربع
لشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب يرحمه الله
للشيخ أحمد بن عمر الحازمي حفظه الله

تنبيه: التفريغ لم يراجع من قبل الشيخ

الدرس الاول
بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمدٍ وعلى آله وصحبه أجمعين, أما بعد
نَشْرع في هذا اليوم بإذن الله تعالى في شرح رسالة القواعد الأربعة لشيخ الإسلام محمد بن عبدالوهاب رحمه الله تعالى بعدما انتهينا من شرح الأصول الثلاثة شرحٍ مختصر والذي يَحسُن للطالب أن يُتبعها بالقواعد الأربعة, وهذه المسائل .. القواعد الأربعة تتعلق بالحكم على المسلم و..المشرك, بمعنى أنك إذا عرفت التوحيد وعرفت الشرك .. فسيذكر المُصَنِّف رحمه الله تعالى شيئاً مما يتعلق بذلك في .. مقدمة لـ المسائل الأربع أو القواعد الأربع, حينئذ كيف نُميّز بين النوعين ؟ كيف نـُميّز بين .. النوعين, فمعرفة التوحيد ومعرفة الشرك حينئذ تحتاج إلى تطبيق وتنزيل على .. الواقع لئلا يلتبس على المسلم المسلمُ بـ .. أو الموحدُ بـ .. بالمشرك, فثمَّ اختلاط بين الشخصين موحد و.. والمشرك, إذ الموحد قد يقع في الشركيات, قد يكون مصلياً صائماً مزكياً حاجاً تالياً صوّاماً قوّاماً ومع ذلك يُحكَم عليه بالشرك الأكبر إذا وقع فيه .

كما سيذكُر المصنف رحمه الله تعالى أن الشرك إذا دخل العبادة أفسدها كما يُفسد الحَدَث الوُضوء, حينئذٍ قد يكون الوضوء صحيحاً ويأتي بشرائطه وأركانه ومستحباته ثم يأتي الحَدَث فيَنتقضَ الوضوء, كذلك يأتي بالإسلام على وجهه ثم يقع في شرك أكبر فينتقض الإسلام, إذ الإسلام له نواقض كما أن للوضوء نواقض كما أن للصلاة مُبطلات كما أن للصوم مُفسدات كذلك للتوحيد مبطلات ومفسدات ونواقض, وهذا محل وفاق بين .. بين أهل العلم .

ولو لم يكن الأمر كذلك لما كان لـ الباب العظيم الذي .. يقرره الفقهاء في كتبهم وهو حد باب "المرتد " .. باب "المرتد ", من هو المرتد ؟ هو من كَفَرَ بعد إسلامه, إذاً قد يدخل في الإسلام ثم بعد ذلك قد يخرج منه .

جرى هنا المصنف رحمه الله تعالى على تأصيلٍ وتقعيدٍ لفهم الفرق بين التوحيد والشرك, وبمعرفة هذه القواعد يرتفع اللبسُ في الحكم على الشخص بكونه مشركاً أو موحداً, إذاً هذه القواعد الأربعة لتمييز المسلم من ؟ .. من المشرك, والرسالة مُختَصرة وذكر أربعاً, وليست محصورة فيها وإنما جرى المصنف رحمه الله تعالى على طريقته وهي تقريب العلم لـ .. للنفس, إذ المُخاطَب بهذه الرسائل : الأصول الثلاثة, القواعد الأربعة .. ونواقض الإسلام ومسائل الجاهلية, ليس الأمر خاصاً بطلاب العلم فحسب دون غيرهم من عامة المسلمين, بل التوحيد مُخَاطبٌ به كلُّ مُكلَّف, { وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ }, حينئذ يتعين على الكل أن يعرف هذه القواعد الأربع, وهذا من العلم الذي هو فرض عين, بمعنى أنه لا يُعذر بجهله البتة, لا يُعذر بجهله .. البتة .

قال المصنف رحمه الله تعالى : (بسم الله الرحمن الرحيم)
وابتدأ المصنف بالبسملة ولم يذكر حمدلة ولا مقدمة لـ .. الرسالة وهذه عادته, من باب تعجيل الفائدة لـ.. للقارئ .. المتعلِّم أو العامّيّ الذي يقرأ هذه الرسالة بدلاً من أن يذكر له مقدمة يستعجل له الفائدة يأتي بـ .. بالبسملة, واقتصر عليها دون الحمدلة, بمعنى أنه لم يأتي بالحمدلة ويترك البسملة وإنما أتى بالبسملة وترك .. الحمدلة, لأنها من أبلغ الثناء والذكر, البسملة من أبلغ الثناء و.. والذكر, وكذلك للخبر الوارد في البسملة (كل أمر ذي بال لم يبدأ فيه ببسم الله الرحمن الرحيم فهو أبتر, أقطع, أجذم) هذه الروايات كلها ضعيفة, ولا يثبت في البسملة من حيث السُنة القوليّة شيءٌ البتة, وإنما ورد من فعل النبي صلى الله عليه وسلم أنه كتب إلى هرقل وغيره (بسم الله الرحمن الرحيم من

محمد بن عبد الله إلى هرقل عظيم الروم ...) والحديث في صحيح البخاري, فدلَ على أنه سُنةٌ فعليّة .. سُنةٌ فعليّة, إذا الخبر المُراد به السنة الفعلية, (بِسْمِ اللّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ) أي أؤلف حال كوني مستعيناً بذكره, متبرّكاً به جل وعلا .

قال المصنف رحمه الله تعالى : (أسأل الله الكريم رب العرش العظيم أن يتولاك في الدنيا والآخرة وأن يجعلك مباركا أينما كنت وأن يجعلك ممّن إذا أُعطيَ شكر، وإذا أُبتليَ صبر، وإذا أذنب استغفر، فإن هؤلاء الثلاث عنوان السعادة.)

هكذا بدأ المصنف رحمه الله تعالى بالدعاء لـ المتعلِّم, وهي عادته رحمه الله تعالى, اعلم رحمك الله كذا أرشدك الله لطاعته, ففيه صلةٌ بين المُعلِّم والمُتَعلِّم بالدعاء له بالتوفيق .. والسداد, إذا الأصل في العلم أن يكون مما يُتلَقَّى من الرب جل وعلا, الذي يشرح الصدر والذي يشرح القلب لتلقي العلم هو الرب جل وعلا, إذ العلم من هذه الحيثية يكون من قبيل هداية التوفيق, هداية التوفيق خاصةٌ بالرب جل وعلا, ولا يملكها أحدٌ من البشر البتة, ولو كان نبياً مرسلاً ولو كان محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم, وأما الهداية التي هي بمعنى الدلالة والإرشاد فهذه يشترك فيها .. صفة تكون لله عز وجل .. وتكون للأنبياء والمرسلين وتكون للعلماء وطلاب العلم وغيرهم, فهم يهدون الناس بـ دلالتهم إلى .. إلى الحق, وأما شرح الصدور وقبول العلم فهذا بيد الله عز وجل وهو المنفي عن النبي صلى الله عليه وسلم بقوله جل وعلا { إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ } بمعنى أنك لا تشرح صدره ولا تجعل في قلبه قبولاً لدعوتك, وهذا شأنه خاص بالرب جل وعلا, مع كونه قال له في آية أخرى { وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ } فأثبت له الهداية في موضع وهي هداية الدلالة والإرشاد ونفاها في موضع آخر وهي دلالة .. الهداية و.. والتوفيق, ولذلك المصنف رحمه الله تعالى يدعو الرب جل وعلا في مقدمة رسائله بالتوفيق للقارئ وأن يجعله مُباركاً ونحو ذلك مما يدل على أن المسألة مبنية على توفيق الله عز وجل أولاً وآخراً .

(أسأل الله) أي أطلب الله تعالى .. السؤال هذا .. (الكريم رب العرش .. العظيم), (الكريم) علمٌ على الباري جل وعلا كما في قوله تعالى { يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ }, و(كريم) قال الزجاجي : الكريم هو الجَوَاد والكريم هو العزيز والكريم هو الصَفُوح, هذه ثلاثة أوجه للكريم في كلام العرب وكلها جائزٌ وصفُ الله تعالى بها, فتجتمع لأن ما كان مشتركاً بين معانٍ متعددة حينئذٍ يُحمَلُ عليه سواءٌ كان في القرآن أو في السنة النبوية ويكون اللفظ عامّاً لـ .. للجميع, والله تعالى لم يزل كريماً ولازال وهو صفةُ ذاتٍ بمعنى نفي النقائص عنه ووصفه بجميع المحامد فهو راجع إلى .. إلى الذات من حيث الشرف وجلالة الصفات, وهو كذلك صفةُ فعلٍ, يعني لها جهتان .. قد تكون صفة ذات ومن جهة أخرى صفة .. فعل, وهو صفة فعل باعتبار ما يكون منه جل وعلا من الإنعام والإحسان والإفضال على خلقه أجمعين, إذاً (الكريم) يُفسَّرُ بما ذُكر, ثم يكون له جهتان, جهة وصفٌ للرب جل وعلا من كونه صفةً ذاتية, وجهةٍ أخرى من كونه صفة لله عز وجل صفةً فعلية .

(رب العرش العظيم) كما في قوله تعالى ـ اقتباسٌ ـ { وهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ }, قال ابن كثير رحمه الله تعالى : { وهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ } أي هو مالك كل شيء وخالقه لأنه رب العرش العظيم الذي هو سَقْفُ المخلوقات, العرش .. هو سقف المخلوقات, وجميع الخلائق من السماوات والأراضين وما فيهما وما بينهما تحت العرش مقهورون بقدرة الله تعالى, وعلمه محيطٌ بل شيء, وقَدْرُهُ .. وقَدَرُهُ نافذٌ على كل شيء وهو على كل شيءٍ وكيل . انتهى كلامه رحمه الله تعالى . إذا قوله { رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ } هذا في اقتباسٌ من الآية المذكورة .

(أن يتولّاك) أسأل الله تعالى أن يتولاك, أي توليّتَكَ, فأن إذا ما دخلت عليه تأويل مصدر مفعولٌ به لقوله (أسأل الله), (أن يتولاك) كما قال الله تعالى { اللّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُواْ }, الله ولي .. الذين آمنوا, فالولي للمؤمن هو الله جل وعلا, قال الخَطّابيّ : الولي الناصر, ينصر عباده المؤمنين, ينصر عباده .. المؤمنين, و.. هذا يدل على أن المرء المسلم بحاجة إلى نصرة خالقه جل وعلا في الدنيا والآخرة كما قال المصنف رحمه الله تعالى (أن يتولاك في الدنيا والآخرة), قال ابن القيّم رحمه الله تعالى : فقد أجمع العلماء بالله على أن التوفيق ألّا يَكِلَ اللهُ العبدَ إلى نفسه, وأجمعوا على أن الخُذلان أن يُخلّيَّ بينه وبين نفسه . حينئذ التولية التي دعا بها المصنف رحمه الله لـ القارئ هي النُصرةُ والإعانةُ والهدايةُ والتوفيق من الرب جل وعلا, أي ثَمَّ أمران إما توفيقٌ وإما خُذلان, والتوفيق كما قال ابن

القيم : ألا يكل الله العبد إلى نفسه, لأن النفس مصدرٌ للضعف والخَوَر, فإذا كان الإنسان مع نفسه حينئذ كان مع ضعيف وإذا كان مع ربه حينئذ كان مع قويّ جليل .. مع القوي الجليل, وأجمعوا على أن الخذلان هو أن يخلي بينه وبين نفسه, النفس أمّارةٌ بالسوء في أصلها, حينئذ إذا خُلّيَ بين العبد وبين نفسه حينئذ جاءت المهالك والعياذ بالله. (في الدنيا والآخرة) الدنيا نَقِيْضُ الآخرة, والآخرة هي دار البقاء, والإعانة والتوفيق, والنصر كذلك كما يكون في الدنيا يكون في الآخرة. (وأن يجعلك) هذا معطوفٌ على قوله (أن يتولاك), (وأن يجعلك) أي يُصَيّرَكَ, (مباركاً أينما كنت) وتوجهت, وتصاحبك البركة, يجعلك أي يصيرك والكاف هذه مفعولٌ أوّل, ومباركاً مفعولٌ ثانٍ, مباركاً مفعولٌ .. ثانٍ, والبركة هي الكثرةُ من كل ذي خيرٍ, مِن بَرَكَ الشيءُ إذا ثَبَت, ففيه خير وفيه دلالة على الثبوت و.. والاستقرار, لذلك قالوا : برك البعير, كذلك تُسمّى البركَة لكونها ثابتةٌ .. لكونها ثابتةً مستقرة, إذا البركة هي الكثرة من كل ذي خير من برك الشيء إذا ثبت, وقوله (يجعلك مباركا أينما كنت) هذا فيه اقتباس من قول عيسى عليه السلام { وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ }, { وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ } قال مُجاهِد : نفّاعاً .. نفّاعاً, أينما كنت يعني أينما .. حلَّ وتَوجَّه, ومعلماً للخير حيثما كنت, والمسلم يُوصَفُ بالبركة, المسلم .. من حيث العموم يوصف بالبركة, والمراد بالبركة البركة المعنوية وليست بركة حسيّة, بمعنى يُتَبَرّكُ بجسده وشعره ونحو ذلك, إنما ذلك خاصٌ بالنبي صلى الله عليه وسلم في وقت حياته عليه الصلاة والسلام, وبعضهم يرى حتى أنه بعد مماته, مما بقي وثبت من .. من آثاره, وأما غيرُ النبي صلى لله عليه وسلم فلا يُتَبَرّكُ بذاته ولا بما نتج عن ذاته البتة, وإنما تكون البركة معنوية, كما جاء في الآية السابقة { وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ } قال مُجاهِد : نفّاعاً, ونفعُ الناس هذا ليس خاصاً بـ .. بالأنبياء والمرسلين بل هو عامٌ في .. شأن المؤمنين, والمسلم يوصف بالبركة, قد جاء في الحديث (إن من الشجر لما بركته كبركة المسلم) فأثبت له النبي صلى الله عليه وسلم بركة, وهذه البركة قلنا المُراد بها البركة .. الكثرة من كل ذي خير, حينئذ قد يكون الإنسان فيه شيءٌ من البركة بمعنى أنه إذا دعا قد يُقبَلُ دعاؤه وإذا وجّه قد تُقبَل دعوته ونحو ذلك هذا من شأن البركة التي جعلها الله تعالى في ذلك الشخص, إذا (إن من الشجر لما بركته كبركة المسلم) فأثبت النبي صلى الله عليه وسلم البركة لـ للمسلم .

(وأن يجعلك ممّن إذا أُعطيَّ شكر) (وأن يجعلك) أي يُصيّرَكَ, (ممّن) هذا عامٌ, (إذا أُعطيَّ شكرَ) (إذا) .. عبّر بإذا لأنها تدل على تحقق ما .. ما بعدها, بخلاف إن, ما قال (وأن يجعلك ممن إن أعطي شكر) (إن) شرطية, تدل على أن ما بعدها مشكوكٌ في وجوده, وأما (إذا) فتدل على تحققه, ولا شك أن عطاء الرب جل وعلا مُتحَقِق الوُ ُقو-ع, (وأن يجعلك ممّن إذا أُعطيَّ شكر) يعني أعطي من النِّعَم, نعم الدين و.. والدنيا, شكر .. لله تعالى, والشكر عرفان الإحسان ونشرهُ, عرفان الإحسان .. ونشره, يعني ذكره للغير, بأن يعرف بأن زيداً من الناس, أو خالقه جل وعلا, قد أحسن إليه بكذا, حينئذ عرفان الإحسان بقلبه ونشره .. ذكره باللسان هو الذي يُعتَبرُ شكراً, ولا يكون إلا عن يدٍ, يعني عن نعمة, هذا في اللغة, وكذلك حقيقته في العبودية, كما قال ابن القيم رحمه الله تعالى : وهو ظهور أثر نعمة الله على لسان عبده . ظهور .. الشكر هو ظهور أثر نعمة الله على لسان عبده ثناءً واعترافاً, لأنه يكون باللسان وعلى قلبه شُهوداً ومحبةً, لأنه يكون بالقلب كذلك, وعلى جوارحه انقياداً وطاعةً, فالشكر سيكون بالقلب ويكون باللسان ويكون بـ الجوارح و.. والأركان, باللسان يكون بالثناء والاعتراف وبالقلب يكون بالشهود والمحبة والاعتراف بالنعمة ونسبتها لفاعلها وخالقها جل وعلا, وكذلك يكون بالجوارح وذلك بـ الانقياد والسمع والطاعة .

(ممن إذا أعطي شكر وإذا ابتلي صبر), (وإذا ابتلي صبر) أي على الابتلاء, والابتلاء هو الاختبار والامتحان, والبلاء كما يكون محنة يكون منحة, بمعنى أنه قد يكون بلاءً لا نعمة فيه البتة على العبد, وقد يكون البلاء في ظاهره وصورته بلاء ومحنة لكنه في باطنه منحة, بمعنى أنه إذا ابتليَّ فصبر وشكر واعترف بالقضاء والقدر وآمن وسلّم حينئذ صار في حقه نعمة, لأنه ترتب عليها من أعمال القلوب والاعتراف باللسان والانقياد بالجوارح والأركان ما لم يكون لو لم تكن هذه المصيبة .

(إذا ابتلي صبر) أي على الابتلاء, والبلاء يكون منحة ويكون محنة, فالله تعالى يبتلي عباده المؤمنين بالمكاره, من أعداء الدين ونحوهم, قال تعالى {هو الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ ـ أي يختبركم ـ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا } حينئذ الابتلاء ينبني عليه حُسن العمل, فالحياة دار ابتلاء بالمصائب والمكاره كما جاء في الحديث (إن الله إذا أحب قوماً ابتلاهم) إذاً الابتلاء مربوطٌ بالمحبة, فمتى ما وُجِدَ دل على .. على المحبة, هذا هو الأصل, (إن الله إذا أحب قوماً ابتلاهم فمن رضيَ فله الرضا ومن سَخِطَ فله السُخْط) هذا يدل على أن الابتلاء قد يترتب عليه رضا من العبد حينئذ

له الرضا, وقد يترتب عليه السخط وهذا الذي يكون محنة في حقه, وهذا في ظاهره أنه بلاء وإلا ففي الحقيقة هو نعمةٌ يُشكَرُ الله تعالى عليها, لمن شهد بقلبه حقيقة الابتلاء .
والصبر في اللغة الحبس والكف والمُراد شرعاً حبس النفس عن الجزع والتسخُّط وحبس اللسان عن الشكوى وحبس الجوارح عن التشويش, كما أن الشكر يكون بـ .. ثلاثة الأركان كذلك الصبر يكون بـ .. الثلاثة الأركان, فالقلب يُسلِّم ولا يجزع ولا يتسخَّط واللسان كذلك يُحبَس عن ويُمنَع عن التسخط و..والشكوى والجوارح كذلك تُحبَس عن اللطم ونحو ذلك .
وهو أنواع ثلاثة :
صبرٌ على طاعة الله
وصبر عن معصية الله
وصبر على امتحان الله تعالى الذي يُعنون له بـ قَدَرِهِ
ونقل ابن القيم رحمه الله تعالى عن شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى فائدة جليلة أنه يقول : الصبر على أداء الطاعات أكمل من الصبر على اجتناب المحرمات وأفضل .
سبق أن .. الصبر ثلاثة أنواع صبرٌ على الطاعة وصبر عن المحرمات, أي النوعين أفضل وأكمل عند الله تعالى ؟
لا شك أن الصبر على الطاعة على فعلها أكمل وأفضل من الصبر عن .. المعاصي, الصبر على أداء الطاعات أكمل من الصبر على اجتناب المحرمات وأفضل, فإن مصلحة فعل الطاعة أحب إلى الشارِعِ من مصلحة ترك المعصية, لأن اجتناب المحرم من قبيل ترك المنهيات, وفعل الطاعات من قبيل امتثال المأمورات, وسبق أن ابن القيم رحمه الله تعالى جعل مقارنة بين النوعين أيهما أحب إلى الشارع فعل المأمور أم ترك المنهي ؟ فعل المأمور أم ترك المحذور ؟ الأصل أن يكون مُخاطَباً بالكل وأن يفعل الجميع ولكن من حيث .. حثُّ الشارع على أحد النوعين والاهتمام به أكثر من غيره, لا شك أن فعل المأمور أكمل من ترك المحذور, ويكفي أن من أعظم الأوامر هو توحيد الله تعالى حينئذ يحتاج إلى إيجاد, لأنه عمل ويحتاج إلى صبر, كذلك ترك المنهيات إنما يكون ثانياً, بمعنى أنه يوجَدُ التوحيد أولاً ولا يُتَحققُ إلا بترك الشرك ويكون تابعاً لـ .. للأول, فإن مصلحة فعل الطاعة أحب إلى الشارع من مصلحة ترك المعصية, ومفسدة عدم الطاعة أبغض إليه وأكره من مفسدة وجود المعصية, إذا الصبر على الطاعات أفضل من الصبر على المحذورات وكلٌ منهما مُخاطَبٌ به المُكلَّف .
(وإذا ابتلي صبر) حينئذ لا يأس ولا .. ولا قنوط, (وإذا أذنب استغفر) هذا الأمر الثالث, الذنب هو الإثم, واستغفر الله من ذنبه طلب منه غَفْرَهُ, (وإذا أذنب استغفر) بمعنى أنه طلب المغفرة والمغفرة هي الستر مع العفو والمَحْو, سترٌ ومحوٌ, وليس المُراد بالمغفرة الستر فحسب وإنما المراد بها الستر و..المحو, (وإذا أذنب استغفر) والذنب من طبيعة بني آدم, قال صلى الله عليه وسلم (لولا أنكم تُذنبون ثم تستغفرون لذهب الله بكم ...) إلى آخر الحديث, (فإن هؤلاء الثلاث عنوان السعادة) الثلاث التي ذكرها المصنف رحمه الله تعالى (أن يجعلك ممن إذا أعطي شكر، وإذا ابتلي صبر، وإذا أذنب استغفر) يعني من تحقق بالشكر إذا أُعطي ومن تحقق بالصبر إذا أُبتلي ومن تحقق بالاستغفار إذا وقع في الذنب حينئذ هو الذي يكون سعيداً, السعادة المراد بها الحياة الطيبة, حينئذ وجود هذه الثلاث يدل على السعادة بل على كمالها, والنقصُ بالنقص, إذا عُدِمَت عُدِمَت السعادة وإذا نُقِصَ منها حينئذ تكون السعادة ناقصة فإن هؤلاء عنوان السعادة من وُفِّقَ لها نال السعادة, ومن حُرِمَ منها أو من بعضها فإنه يكون شقياً, إذ السعادة ضد .. ضد الشقاء, (فإن هؤلاء الثلاث عنوان السعادة) أي من وفق لها نال السعادة كما ذكرنا, والسعادة هي الحياة الطيبة .
(اعلم أرشدك الله لطاعته أن الحنيفية ملة إبراهيم أن تعبد الله وحده مخلصا له الدين كما قال تعالى { وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ })
ثم قال المصنف رحمه الله تعالى بعد هذه الدعوات المباركات والطيبات (اعلم أرشدك الله لطاعته أن الحنيفية ملة إبراهيم أن تعبد الله وحده مخلصا له الدين كما قال تعالى { وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ }), هذه مقدمة يجعلها المصنف رحمه الله تعالى في جُلِّ كتبه, لأنها مما ينطلق منها المُكلَّف, سواءٌ في تقرير باب التوحيد في نفسه أو في دعوته, لأن فهم عقيدة التوحيد هي أساسٌ في التعلم والتعليم, وهي أساسٌ في مقام الإنكار والتوجيه, لأن من لم يعرف التوحيد على حقيقته حينئذ يَتَعَذَّرُ عليه أن يطبقه, كذلك إذا لم يفهم التوحيد على حقيقته حينئذ يتعذر عليه أو يعسُر أن .. يدعو غيره إلى ذلك, حينئذ جاء كلام المصنف رحمه الله تعالى مُصَدَّراً بقوله (اعلم) وهذا خطاب عام

لكل مسلم ومسلمة, ليس خاصّاً بـ .. بشخصٍ واحد وإن ذُكِّرَ وإنما المراد به المذكور يعني المخاطب من حيث .. من حيث هو,

(اعلم) أمرٌ بتحصيل العلم, أي كن متهيئاً لما يُلقى إليك من العلوم, وهي كلمة شاعت عند أهل العلم يُؤتَى بها عند ذكر الأشياء المهمة . (أرشدك الله لطاعته) هذه دعوة من .. المصنف رحمه الله تعالى بـ تحصيل الرَشاد . (أرشدك الله) الرَشَدْ هو الهُدى والفلاح وهو الذي يهدي إليه القرآن, { إِنَّ هَـذَا الْقُرْآنَ يِهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ }, والراشد ضد الغاوي والمهدي ضد الضال, فصار مأخوذٌ من الرشاد وهو ضد الغواية, فأرشدك الله أي هداك إلى الرُشْدِ ووفقك الله ودلَّك عليه, أو إن شئت قل ألهمك طاعته بالرَشَدِ والاعتصام بها, إذا الرشد ضد .. ضد الغواية .

(اعلم أرشدك الله لطاعته) أرشدك الله .. لطاعته, الطاعة هي فعل المأمور وترك المحذور وهي أعمُّ من .. من القُربَة, إذ القربة لا تكون قربة إلا مع وجود النية وأما الطاعة فهي أعم, فكل قربةٍ طاعة ولا عكس, وهو المُقرر عند .. الحنابلة .

(اعلم أرشدك الله لطاعته) ماذا تعلم ؟ (أن الحنيفية ملة إبراهيم أن تعبد الله) (أن) وما دخلت عليه تأويل مصدر مفعول لـ اعلم و(الحنيفية) اسم إ.. اسم أن و(ملة إبراهيم) بَدَلْ أو عطف بيان, (أن تعبد الله) أن وما دخلت عليه تأويل مصدر خبر (أن), (أن الحنيفية ملة إبراهيم عبادة الله وحده مخلصا له الدين), أي العبادة بـ .. بالإخلاص, و(الحنيفية) هذا مصدرٌ صناعي مأخوذٌ من الحَنَفْ, وأصله في اللغة المَيْلْ, يُقال فلانٌ في رجليه حَنَفٌ أي ميلٌ, وهنا تُفسَّرُ بالميل عن الشرك, بالميل عن .. عن الشرك إلى الحق, ففيه ميلٌ من كذا إلى ؟ إلى كذا, هنا قد مال عن الشرك إلى .. إلى الحق, إذ هما مُتلازمان, فكل من مال عن الحق فلابد وأن يقع في .. في الباطل, سواء أن كان شركاً أو ؟ أو غيره, وكل من مال عن الباطل فلابد أن يقع في .. في الحق, وهكذا . فالحنيف هو المائل إلى التوحيد مع الثبات عليه, الحنيف هو المائل عن الشرك قصداً إلى التوحيد, والحنيف هو المستقيم, معاني ذكرها ابن القيم رحمه الله تعالى وكلها متواطئة, وهو المُستمسِك بالإسلام المُقبِلُ على الله تعالى المُعرِضٌ عن كل ما سواه . والمراد بالحنيفية هي الملة المائلة عن الشرك المبنية على الإخلاص لله عز وجل, الملة .. المائلة عن الشرك المبنية على الإخلاص لله عز وجل, فالحنيفية بيّنَ المصنف أنها ملة إبراهيم فقال (ملة إبراهيم) يعني ملة لإبراهيم, فالإضافة هنا لامية تفيد الاختصاص, فهي خاصة بـإبراهيم ونُسبَت إليه ولكنها عامة لسائر الأنبياء, إذ ما من نبي وما من رسول إلا وقد دعا إلى من دعا إليه إبراهيم عليه السلام, والملة هي الشِرْعَةُ, يُقال ملة فلان كذا أي نِحلته وشِرعته يعني دينه الذي جاء به, فالملة هنا بمعنى الدين, وهو ما شرعه الله على ألسنة رسله, و(ملة إبراهيم) يذكرها المصنف رحمه الله تعالى في سائر كتبه بهذا اللفظ بمعنى أنها نُسِبَت إلى إبراهيم دون غيره من سائر الأنبياء وهذا لأمور ثلاث :

أولاً لأن لفظ القرآن جاء بذلك وهو موافق لـ .. لفظ القرآن { قُلْ صَدَقَ اللّهُ فَاتَّبِعُواْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً } قال فاتبعوا ملة إبراهيم حنيفا و{ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ } .

ثانياً لأنه أبو الأنبياء وهو خليل الرحمن { وَاتَّخَذَ اللّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً } وهو من أولي العَزْمِ من الرسل وتكرر منهجه في القرآن كثيراً .

ثالثاً لأن النبي صلى الله عليه وسلم جاء إلى أقوامٍ يدَّعون أنهم على ملة إبراهيم, وكلاً يدعي وصلاً بـ (ليلى) .. فقريش تدعي أنها على ملة إبراهيم وكذلك اليهودُ والنصارى كما جاء في قوله تعالى { مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيّاً وَلاَ نَصْرَانِيّاً وَلَكِن كَانَ حَنِيفاً مُّسْلِماً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ }, فلما جاء النبي صلى الله عليه وسلم إلى أقوامٍ كلٌ منهم يدعي أنه على ملة إبراهيم, وهم مخالفون لملة إبراهيم عليه السلام أصلاً وفرعاً فجاء حينئذ التعبير بهذا اللفظ .

(أن تعبد الله وحده مخلصا له الدين) أن تعبد .. العبادة في اللغة هي الذُلُّ والخُضُوع وفي الشرع باعتبار الآحاد اسم جامع لكل ما يحبه الله تعالى ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة و.. والباطنة, فهذه العبادة بجميع أصنافها يجب أن تكون لله تعالى وحده ولذلك قال هنا (أن تعبد الله) أي عبادة الله, إذا (وحده) هذا من باب الإخبار بأن العبادة لم تكن إلا لله عز وجل وحده أي منفرداً, والواحد مأخوذ من الوحدة وهي الانفراد وجاء في وصف إبراهيم { وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ } ولا شك أن الشرك مأخوذٌ من الشَرِكَة, من .. من الشركة, إذا ضده الوحدة, فثم وحدةٌ وثم .. إشراكٌ, { ولَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ } لا بذاته ولا بقوله ولا بعمله ولا بحاله ولا بمآله مطلقاً لم يكن من المشركين, وهذا يدل على أن ملة إبراهيم عبادة الله تعالى وحده مطلقاً, بمعنى أنه لم يُشَرِّك مع الله تعالى أحداً البتة, (وحده)

أي منفرداً, فمن لم يعبد الله تعالى أصلاً هذا لا شك أنه لم يكن على ملة إبراهيم, من عبد الله تعالى وعبد معه غيره لا شك أنه لا يكون على ملة إبراهيم, وإنما يكون على ملة إبراهيم من تحقق بالعبودية لله جل وعلا وأفرد العبادة لله تعالى, فثم أصناف ثلاث من لم يعبد الله أصلاً لا حظ له من ملة إبراهيم, من عبد الله وعبد غيره معه هذا لا حظ له من ملة إبراهيم البتة كسابقه النوع الثالث وهو المراد هنا وهو من أفرد الله تعالى بـ .. بالعبادة .

(مخلصاً) هذا حال, (له) أي لله عز وجل, (مخلصاً له الدين) مخلصاً له .. الدين, والإخلاص هو الخالص الصافي وهو مازال عنه الشوائب, يُقال هذا لبن خالص, أي لم يشبه شيء, (مخلصاً له) اللام للاستحقاق والضمير يعود إلى الله تعالى, و(الدين) المراد به العمل, فيشمل حينئذ عمل القلب والجوارح واللسان, أي مخلصاً له العمل سواء كان عمل قلب أو كان عملاً باللسان أو عملاً بالجوارح والأركان, مخلصاً له العمل من كل شائبة تتعلق بـ .. المنافاة لـ .. التوحيد, أي من كل شائبة شرك, والدين يتضمن معنى الذل و..والخضوع, يدينُ اللهَ ويدينُ للهِ, يتعدى بنفسه وبالله أي يعبد اللهَ ويطيعه ويخضع له .. أي يعبد الله ويطيعه ويخضع له, فدين الله عبادته والخضوع له, إذاً ملة إبراهيم محصورة في شيء واحد وهو عبادة الله تعالى وحده
بالإخلاص, فمن انتفى عنه الأمر الأول وهو لم يعبد الله انتفى عنه ملة إبراهيم .. انتفت عنه ملة إبراهيم, ومن عبد الله تعالى وعبد معه غيره حينئذ انتفى في حقه الإخلاص فلا يكون مخلصاً وإذا كان كذلك انتفى عنه وصف ملة إبراهيم كما قال تعالى { وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ }, وهنا كأن ثَمَّ محذوفاً في .. في الكلام, حيث قال (أن تعبد الله وحده مخلصاً له الدين) وهذه العبادة هي التي أمر الله بها الخلق أو تُقدر لها .. هي التي خلق الله عز وجل لها الخلق وأمرهم بها كما هو الشأن في .. الأصول الثلاثة, كما قال تعالى { وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ } إلا ليعبدون, و(ما) هذه نافية و(إلا) إيجاب واستثناء وهذا قصرٌ بل هو من أعلى درجات القصر ففي الآية قصر حكمة الخلق على شيءٍ واحد وهو .. عبادة الله تعالى وحده دون ما سواه, قصر حكمة الخلق للجن والإنس على العبادة فقط دون غيرها من .. من الحكم, ومن النص وهو واضحٌ بيّن أن الله تعالى لم يخلق العالم ـ عالم الجن ولا عالم الإنس ـ إلا لتحقيق غاية واحدة وحكمة واحدة وهي عبادته جل
وعلا بـ ..الإخلاص { وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ } وهذا يسميه البعض بالاستثناء المُفَرَّغْ من أعم الأحوال, أي ما خلقت الجن والإنس لأي حال من الأحوال ولأي غرض من الأغراض إلا لغرض واحد وحكمة واحدة وهي عبادته جل وعلا, قال عليٌّ رضي الله تعالى عنه في معنى الآية : أي ما خلقت الجن والإنس إلا لآمرهم بالعبادة, لآمرهم بـ .. بالعبادة, ويدل عليه قوله تعالى { وَمَا أُمِرُواْ إِلاَّ لِيَعْبُدُواْ إِلَـهاً وَاحِداً } إذاً وما أمروا إلا ليعبدوا إلها واحدا أي أنهم ما خُلِقوا إلا من أجل أن يؤمَروا بالعبادة, وهذا يؤكد المعنى الذي ذكره عليٌّ رضي الله تعالى عنه .
وقال مُجاهِد : إلا لآمرهم وأنهاهم, فالعبادة هنا ليست خاصة بـ .. بالتوحيد بل هي عامة بـ .. التوحيد وماعداه من الأوامر, ولا شك أن قول مجاهد هنا (إلا لآمرهم) أعظم الأوامر هو التوحيد ودخل فيه من باب الأولوية, (وأنهاهم) أعظم ما نهى الله تعالى عنه هو .. هو الشرك ودخل فيه بـ الأولوية, واختاره ابن تيمية رحمه الله تعالى قال : ويدل على هذا قوله سبحانه { أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى } قال الشافعي : لا يؤمر ولا يُنهى ؟, فدل على أن تفسير علياً رضي الله تعالى عنه ومجاهد أقرب إلى .. المعنى, والمصنف رحمه الله تعالى كثيراً ما يفسر العبادة هنا في هذا الموضع بالتوحيد بـ .. بالتوحيد, كما قال في الأصول الثلاثة : ومعنى يعبدون أي يوحدون, ومعنى يعبدون أي يوحدون أي يُفرِدوني بالعبادة وهذا هو التوحيد, قال ابن عباس : كل موضع في القرآن { اعْبُدُواْ اللّهَ } معناه وحدوا الله, معناه .. وحدوا الله, وعنه في قوله تعالى { إِيَّاكَ نَعْبُدُ } إياك نوحد, إياك نعبد إياك نوحد ونخاف ونرجو يا ربنا لا غيرك, فدل على أن معنى يعبدون أي يوحدون, ومعنى إياك نعبد أي إياك نوحد, وهذا يوافق ما اختاره المصنف رحمه الله تعالى في كثير من المواضع في تفسير العبادة بالتوحيد وعند التأمُّل لا فرق بين القولين, من عمَمَ ومن خصَصَ, لأن العبادة مبينة على التوحيد .. العبادة مبينة على التوحيد, فكل عبادة لا توحيد فيها ليست بعبادة كما سيذكر المصنف رحمه الله تعالى, قال تعالى كما في الحديث القدسي { أنا أغنى الشركاء عن الشرك, من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشركه } دل على أن العمل الذي يكون فيه شيءٌ من الشرك مردودٌ على .. على صاحبه, إذاً نظر المصنف رحمه الله تعالى إلى قول ابن عباس (كل أمر بالعبادة هو أمر بالتوحيد) ثم المعنى أن العبادة بسائر أنواعها وآحادها وأصنافها مبينةٌ من حيث الصحة و.. والفساد ومن حيث القبول والرد .. مبينةٌ على التوحيد, فإن جاء بالتوحيد حينئذ قُبِلَت عبادته, وإذ لم يأتي بالتوحيد رُدَّت عبادته, ولذلك إذا كان واقعاً في الشرك فلو

صلّى فصلاته مردودة, و.. ولو زكّى فزكاته مردودة, وكذلك صيامه وحجة, لماذا ؟ لكونه لم يأتي بالأساس الذي تُبنى عليه العبادات وهو توحيد الله جل وعلا .
وإلا فالتوحيد من العبادة وهي أعم منه حينئذ فسّر الشيء ببعض أفراده لأن تلك الأفراد مبنية على هذه .. على هذا الأصل العظيم وهو توحيد الرب جل وعلا, { وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ } إذاً دلت الآية على .. الحكمة من خلق الخلق وهي عبادته جل وعلا .
ثانياً إذا عُلِم أن الله تعالى خلق الخلق من أجل عبادته تعيَّن عليهم أن يعبدوا الله تعالى تحقيقاً لهذه الغاية, فيجب عليهم أن يحققوا هذه الحكمة وهي عبادته وحده حينئذ يكون التوحيد واجباً .
ثالثاً أن المستحق للعبادة دون ما سواه هو الخالق لأنه قال { وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ } لا شك أن الخالق هو المستحق للعبادة, فدل ذلك على أنه من لم يكن خالقاً لا يكون مستحقاً لـ .. للعبادة, أما من لا يخلق فلا يستحق شيئاً كما قال تعالى { أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لاَّ يَخْلُقُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ } .

فإذا عرفت أن الله خلقك لعبادته فاعلم أن العبادة لا تسمى عبادة إلا مع التوحيد، كما أن الصلاة لا تسمى صلاة إلا مع الطهارة، فإذا دخل الشرك في العبادة فسدت، كالحدث إذا دخل في الطهارة. فإذا عرفت أن الشرك إذا خالط العبادة أفسدها وأحبط العمل وصار صاحبه من الخالدين في النار، عرفت أن أهم ما عليك: معرفة ذلك، لعل الله أن يخلصك من هذه الشبكة وهي الشرك بالله الذي قال الله تعالى فيه: { إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ } ، وذلك بمعرفة أربع قواعد ذكرها الله تعالى في كتابه:

ثم قال المصنف رحمه الله تعالى مقرراً ما سبق وموضحاً له ومؤكداً (فإذا عرفت أن الله خلقك لعبادته), (فإذا عرفت) يعني من الآية السابقة, وما دل على أن ملة إبراهيم هي عبادته جل وعلا وحده بالإخلاص, (فإذا عرفت) من الآية السابقة (أن الله خلقك لعبادته), وهذا داخلٌ في قوله { الْإِنسَ } لأنك واحد من .. من الإنس, حينئذ أنت مُخاطَب بما خُوطِبَ به .. اللفظ العام, لأنه يدخل فيه كل فرد من أفراد الإنس, (أن الله خلقك لعبادته) هذا مُتَقَرِّر ينبني عليه, (فاعلم) علماً جازماً لا يحتمل النقيض بوجه من الوجوه, (أن العبادة) المأمور بها في الآية السابقة والتي خُلق من أجلها الخلق (لا تسمى عبادة), أي صحيحة مقبولة, (إلا مع التوحيد), إلا مع مصاحبة التوحيد, والمراد بالتوحيد هنا -ال للعهد الذهني- المراد به توحيد الألوهية, أي إفراد الله تعالى بالعبادة, وليس المراد به توحيد الربوبية ولا توحيد الأسماء والصفات, إذا (فاعلم أن العبادة لا تسمى عبادة إلا مع التوحيد) وهذا يدلك على أن المصنف رحمه الله تعالى إنما يفسر العبادة في مواضع عديدة بالتوحيد, لأن مبنى العبادة هو التوحيد, وإذا كان هو الأساس كان هو الذي ينبغي التنصيص عليه بضمن أفراد العبادة .
(كما أن الصلاة لا تسمى صلاة إلا مع الطهارة) هذا من باب التنظير الواضح البيّن الذي يُدركه العقلاء دون غيرهم من أصحاب الانحرافات, (كما) الكاف للتنظير, (كما أن الصلاة) المأمور به في الكتاب والسنة (لا تسمى صلاة) صحيحة مقبولة (إلا مع الطهارة) من الحدثين الأصغر و.. والأكبر, فإذا صلى ولم يكن متطهراً صلاته مردودة عليه, وإذا عبد الله تعالى ولم يأتي بالتوحيد فعبادته مردودة عليه وهذا تنظير واضحٌ بيّن ولا خلاف فيه بين أهل العلم البتة, (كما أن الصلاة لا تسمى صلاة إلا مع الطهارة) أي من الحدثين الأكبر و.. والأصغر, (فإذا دخل الشرك في العبادة) أي في جزء, والشرك هو دعوة غيره معه جل وعلا, صرف العبادة لغير الله تعالى يسمى شركاً, وليس المراد كل العبادة بل ولو جزءاً من أجزاء العبادة إذا صرفها لغير الله تعالى فهو مشرك قد وقع في .. في الشرك الأكبر, (فإذا دخل الشرك في العبادة) أي في جزء من أجزاء العبادة, ولا يُشترط فيه أن يدخل الشرك في جميع العبادة, إنما المراد بعض العبادة, (فإذا دخل الشرك في العبادة) أي في جزء من أجزاءها, (فسدت) يعني العبادة, فسدت يقال فسد فساداً وفسوداً ضد صلُح فهو فاسد إذاً لم .. لم يصلح, والفاسد والباطل بمعنى واحد عند أهل الأصول, (فإذا دخل الشرك في العبادة فسدت) أي العبادة, (كالحدث إذا دخل في الطهارة) كالحدث الأصغر إذا دخل في الطهارة بمعنى أنه إذا توضأ ثم أحدث نحكم على وضوءه بكونه قد فسد, لماذا ؟ لوجود المناقض, إذ لا يجتمع مع الطهارة الصحيحة التامة وجود سبب لـ ناقضٍ أو وجود ناقضٍ من نواقض هذه الطهارة,

كذلك التوحيد أو العبادة تفسُد ـ وقد تكون في الأصل على وجه الكمال ـ تفسد إذا دخل فيها شيءٌ ولو قليل من أجزاء الشرك الأكبر, حينئذ نحكم على العبادة بكونها باطلة كما نحكم على الوضوء بكونه باطلاً لوجود الحدث والعبادة باطلة لوجود الشرك فيه, حينئذ لا يُحتَج بكون الرجل الذي قد وقع في الشرك بكونه عابداً لله عز وجل, ولذلك قد وُجِدَ من طواغيت البشر الذين يُعلِّمون الناس الشرك الأكبر, وُجِدَ من هو من أهل العلم, ووُجِدَ من هو في ظاهره من أهل الصلاح, ووجد من له من المصنفات في التفسير والحديث ونحو ذلك ومع ذلك فهو مشركٌ شركاً أكبر لوجود هذا الشرك, وكونه عالماً وكونه صالحاً في ظاهر الأمر وكونه ممن كتب وألّف وصَنَّف هذا لا يُعتبر حجة في الحكم عليه بـ .. بالشرك, كما أن الصلاة في أصلها قد أتى بأركانها وشروطها ونحو ذلك ثم بعد ذلك نحكم عليه بـ .. بالبطلان .

(فإذا عرفت أن الشرك إذا خالط العبادة أفسدها) .. نعم, (فإذا دخل الشرك في العبادة فسدت) أي العبادة (كالحدث إذا دخل في .. في الطهارة), (فإذا عرفت أن الشرك إذا خالط العبادة أفسدها وأحبط العمل وصار صاحبه من الخالدين في النار), (أفسدها وأحبط العمل) أحبط بمعنى أبطل, { لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ } دل ذلك على أن الشرك محبطٌ للعمل, وهذا خطابٌ للنبي صلى الله عليه وسلم وهو خطاب لغيره, فإذا كان النبي عليه الصلاة والسلام لجلالته وشرف مقامه لو وقع ـ ولن يقع ـ منه الشرك فقد توعده الله عز وجل بـ حبوط العمل, فكيف بمن هو دونه ؟ فهو من بابٍ أولى وأحرى, (وأحبط العمل) قولاً أو بالجوارح, (وصار صاحبه) أي فاعله .. فاعل الشرك, (من الخالدين) أي من الماكثين في النار, (عرفت) حينئذ, (أن أهم) وأوجب وآكد, (ما عليك) يعني ما يلزمك, (معرفة ذلك) أي الشرك الذي يحبط العمل, فإذا تبيّن لك أن قليل الشرك يفسد العـ .. يفسد العبادة ولو عبد الله تعالى مئة عام وختم على نفسه بشرك أو بالوقوع في الشرك الأكبر حينئذ يتعين على المرء أن يعرف حقيقة الشرك, إذ لا يمكن له البتة أن يحترز عن الشرك دقيقه وجليله ظاهره وباطنه إلا بمعرفة أفراده, وكل ما تمعّن الناظر في أنواع الشرك وحقيقة الشرك حينئذ صار منه علمٌ بـ ذلك الشرك فلن يقع فيه إلا أن يشاء الله تعالى, وأما إذا كان جاهلاً قد يقع ولا .. ولا يشعر بذلك, (عرفت أن أهم ما عليك: معرفة ذلك، لعل الله) لعل للترجي (أن يخلصك) وينجيك (من هذه الشبكة) شبكة محركة كشبكة الصيّاد, يُجمَع على شَبَك وشِباك .. شَبَك و.. وشِباك, يقال شبكت الأمور واشتبكت وتشابكت اختلطت والتبست وطريقٌ شابكٌ مُتداخلٌ ملتَبِس, إذا الأمر فيه شيء من الالتباس, ولذلك كثر عند المتأخرين من الصوفية وغيرهم ثَمَّ ترويجاً لمذهبهم مع كونهم يستندون في ظاهر الأمر إلى نصوصٍ من الكتاب والسنة, فقد يقع عند العامي على جهة الخصوص وأشباه العوام ما قد يظن أن مذهبهم فيه شيءٌ من .. من الصحة, إذا ثَمَّ التباس واختلاط في الأمر, إذا قد وقع كبار ممن يُنسبُ إلى العلم في الوقوع في الشرك الأكبر من الاستغاثة بالنبي صلى الله عليه وسلم والاستغاثة بالأموات وغيرها والأقطاب والغوث ونحو ذلك وهم يُشارُ إليهم بالبنان, فدل ذلك على أن الأمر شديد وأنه يحتاج من المسلم أن يعي حقيقة التوحيد وحقيقة الشرك وأن يعرف ماذا أراد الله عز وجل ممن معنى التوحيد وما أراد ..الذي أمر الله تعالى به, وماذا أراد الله تعالى من معنى الشرك الذي رتَّب عليه الخلود في النار, إذ لهما حقيقتان شرعيتان .

(لعل الله أن يخلصك من هذه الشبكة وهي الشرك بالله الذي قال الله تعالى فيه) مبيناً عظمة هذا الذنب وأنه أظلم الظلم وأعظم الذنوب على الإطلاق, قال جل وعلا مؤكداً هذا الخبر بقوله { إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن
يَشَاءُ } فالشرك من مات عليه دون توبة لن يغفره الله تعالى وصاحبه مُخلَّدٌ في النار { إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللّهُ عَلَيهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ }, { إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ } نفى المغفرة, وهنا يغفر فعل مضارع في صيغة النفي, فيشمل أدنى مغفرة, فلا يلحقه ولا جزءٌ من المغفرة, كل المغفرة بكمالها وأجزائها منفية عن هذا المُشرك, { أَن يُشْرَكَ بِهِ } والمراد بالشرك هنا الشرك الأكبر وهو دعوة غيره معه جل وعلا, وأما من لم يقع في الشرك فبيّن سبحانه وتعالى أنه إن مات على ما دون الشرك ولم يتب فهو تحت المشيئة, { وَيَغْفِرُ } الرب جل وعلا { مَا دُونَ ذَلِكَ }, يعني ما هو أقل من .. من الشرك به جل وعلا وهو الكبائر, { لِمَن يَشَاءُ } من أهل الذنوب و.. والآثام .

(وذلك), أي الخلاص من هذه الشبكة, (بمعرفة) أي بسبب معرفة, (أربع قواعد ذكرها الله تعالى في كتابه) أربع قواعد, قواعد جمع قاعدة والمراد بها هنا الأصل, وهي ليست محصورة في أربعة بل هي تزيد ولكن أراد المصنف رحمه الله تعالى التيسير والتسهيل بِعَدِّها بأربع, وذكر أهم ما يمكن أن يُعتمد عليه, قال (ذكرها الله تعالى في كتابه) وهذا حقٌّ وهو ظاهرٌ بيّن, لأن التوحيد ومعالم التوحيد وبيان حقيقة التوحيد وأنواع التوحيد, هذه لم يجعلها الله عز وجل لأحد من البشر البتة, وإنما خلق الخلق من أجل تحقيق التوحيد ثم بينه جل وعلا .. أتم بيانه بالكتاب والسنة, وكذلك أنواع التوحيد الثلاثة مُجْمَعٌ عليها, وهي مبينة في الكتاب والسنة وأقوال سلف الأمة على أتم بيان, كذلك ما يُقابله من الشرك الأكبر وأنواعه كبيره وصغيره مبينة على .. وجه التمام, ولذلك لا يكون للبشر هنا - سواء كانوا مجتهدين أو لا - لا يكون لهم اجتهاد في أصل التوحيد ولا في أنواع التوحيد ولا في أصل الشرك ولا في أنواع .. الشرك, وثمَّ أمورٌ قد وقع فيها المخالفون المتأخرون هي سبب ضلالهم في .. في هذا الباب لأنهم فسروا (الإله) وفسروا (لا إله إلا الله), وفسروا (الرب) وفسروا (الشرك) بـ .. معانٍ لم يدل عليها حرفٌ من كتاب الله ولا من سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم, فلما وقعوا في هذا المحذور حينئذ انجرّوا في شبكة الشرك, كما قال المصنف هنا رحمه الله تعالى دون أن يشعروا, وظنوا أن تفسير التوحيد بما فسروه به أنه هو الحق وهو باطل وأن تفسير التوحيـ .. الشرك الذي فسروه به هو الحق وهو باطل . إذا هذه القواعد ذكرها الله تعالى في .. في كتابه, فالمصنف رحمه الله تعالى من طريقته أنه لا يأتي بمسألة من مسائل التوحيد إلا ويقرنُها بدليل من كتابٍ أو سنة, ليدل بذلك على أن دعوته قائمة على الكتاب والسنة وليست دعوة منطلقة من شخص أو من ذات شخص رحمه الله تعالى, وإنما هي مبينة على أصلٍ أصيل لمن فتح الله تعالى وفهم عنه جل وعلا . (وذلك بمعرفة أربع قواعد ذكرها الله تعالى في .. في كتابه) وهذه القواعد تُعرف بالاستقراء والتتبع وهو حجةٌ تثبت بها الأحكام الشرعية .

[القاعدة الأولى]

أن تعلم أن الكافرين الذين قاتلهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، مقرون بأن الله تعالى هو الخالق الرازق المدبر، وأن ذلك لم يدخلهم في الإسلام، والدليل قوله تعالى: { قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ } .

القاعدة الأولى التي ذكرها المصنف رحمه الله تعالى وهي قاعدة قطعية يقينية, أربع قواعد القاعدة الأولى والثانية والثالثة كلها قطعية يقينية, بمعنى أنها لا خلاف بين السلف, وإن خالف المُتأخِّر فلا عبرة بـ .. بخلافه, وأما السلف فلا خلاف بينهم في تقرير هذه القواعد على الوجه الذي أراده المصنف رحمه الله تعالى هنا .

القاعدة الأولى وهي قاعدة قطعية يقينية أفاد المصنف فيها .. أو مضمون هذه القاعدة أن الكفار والمشركين الذين بُعث فيهم الرسول صلى الله عليه وسلم وقاتلهم, أنهم مقرون بتوحيد الربوبية, إذ المعلوم أن التوحيد هو إفراد الله تعالى بما يختصُ به من الربوبية والألوهية والأسماء والصفات, ولذلك انقسم عند أهل السنة والجماعة إلى ثلاثة أقسام

توحيد الربوبية وهو إفراد الله تعالى بأفعاله .

وتوحيد الألوهية وهو إفراد الله تعالى بأفعال العباد .

وتوحيد الأسماء والصفات وهو إثبات ما أثبته الله تعالى لنفسه في كتابه أو على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم, ونفي ما نفاه الله تعالى عن نفسه في كتابه أو على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم .

حينئذ هذه الأنواع الثلاثة .. أقر المشركون بجملة النوع الأول والثالث, وهو توحيد الربوبية وتوحيد الأسماء والصفات, فلم يكن الخلاف بين الرسل ومَن بُعِثُوا إليهم يعني من أقوامهم لم يكن الخلاف في توحيد الربوبية في الجملة ولا في توحيد الأسماء والصفات, وإنما كان الخلاف والنزاع بينهم والمقاتلة في .. مفهوم توحيد الألوهية وهو

إفراد الله تعالى بالعبادة, حينئذ يُفهَم من هذا أن توحيد الربوبية ليس هو المُطالَب على جهة الخصوص من .. من البشر, فقوله تعالى { وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ } ليس المراد به من جهة الأصالة أنهم يقرون بأن الله تعالى هو الخالق الرازق المالك المُدبّر, لأن هذه مما استوى فيه المشرك والموحد, فإذا كان كذلك لا يكون هو الفيصل والفارق بين المسلم و.. والكافر, فلو قيل بأن من أسلم قد أتى بتوحيد الربوبية فنقول المشرك كذلك أتى بتوحيد الربوبية ومع ذلك لم يُدْخِلْهُ في .. في الإسلام, وهذا أصلٌ أصيل ينبغي العناية به وجمع الآيات الدالة عليه وهو محل وفاق كما ذكرت لكن ثم شبهةٍ .. ثمَّ شبهةٌ عند المتأخرين من الصوفية, ثَمَّ نزاع في هذه المسألة, والحق الذي هو جدير بـ قبول ما ذكره المصنف رحمه الله تعالى حيث قال (أن تعلم) القاعدة الأولى (أن تعلم) علماً جازماً لا ريب فيه البتة, لأن هذه .. قاعدة مبنية على استقراء وتتبع لـ أدلة الكتاب والسنة, والقرآن من أوله إلى آخره يثبت أن المشركين يقرون بجملة من .. توحيد الربوبية حينئذ دل على أنهم قد وافقوا المسلم في هذه الجزئية وفي هذا القدر ومع ذلك لم يُدخلهم في .. في الإسلام, بل حكم عليهم بالشرك, وحكم عليهم بوجوب القتال والمقاتلة .

(أن تعلم) علماً جازماً (أن الكفار الذين قاتلهم رسول الله صلى الله عليه وسلم) كفار .. عبّر عن المشركين بالكفار على القول الراجح أن الشرك والكفر بمعنى واحد وليس ثم فرق إلا من حيث المعنى اللغوي فحسب, وإلا الشرك والكفر بمعنى واحد ولذلك عبر هنا عن المشركين بـ الكفار, (أن تعلم أن الكفار الذين قاتلهم رسول الله صلى الله عليه وسلم) على اختلاف أنواعهم سواء كانوا يهود أو نصارى أو مشركي العرب .. ماذا حالهم ؟ قال (مُقِرُّونَ بأن الله تعالى هو الخالق) يعني معترفون بألسنتهم ما اعتقدوه بقلوبهم وهذا بشهادة رب الأرض والسماء بأنهم أقروا بأن الله تعالى هو الخالق هو المدبر هو المالك, حينئذ قاتلهم النبي صلى الله عليه وسلم مع وجود هذا الاعتقاد, لماذا ؟ لكونه لم يكن هو المطلوب منهم على جهة الابتداء, وإن كان تابعاً لـ توحيد الألوهية, إذا (مقرون بأن الله تعالى) أي معترفون بألسنتهم لأن الإقرار لا يكون إقراراً إلا بـ نطق مع اعتقاد بالقلب, ولذلك نقول أن الإيمان هو الإقرار بمعنى أنه يقر بما .. أبطنه في .. في قلبه, (مقرون) أي معترفون بألسنتهم, لابد من النطق بذلك ما اعتقدوه بقلوبهم, وأما إذا نطقوا بشيءٍ لم يعتقدوه بقلوبهم لا يسمى إقراراً البتة, بل هذا هو النفاق بـ بعينه, معترفون بألسنتهم ما اعتقدوه بقلوبهم, (بأن الله تعالى هو الخالق) وهذا فيه قصر, هو الخالق, يعني تعريف الجزأين المبتدأ والخبر يدل على القصر, نفهم من ذلك أن المشركين الذين قاتلهم النبي صلى الله عليه وسلم يقولون : لا خالق إلا الله, بمعنى أنهم أثبتوا صفة الخلق لله عز وجل ونفوا الشركة في تلك الصفة, هو الخالق أي هو جل وعلا المنفرد بهذا الوصف, أي هو الخالق لا غيره, المدبر لجميع شؤونهم جل وعلا, (وأن ذلك) الإقرار بإفراد الله تعالى بأفعاله, الخالق المدبر وسائر أفعاله جل وعلا, (لم يدخلهم في الإسلام) لم يدخلهم .. في الإسلام, إذاً لا يُحكم على الشخص بكونه مسلماً لمجرد الإقرار بأفعال الرب جل وعلا, فمهما وصف من صفات الرب جل وعلا, ومهما قال وكتب من الاعتراف بما لله عز وجل في هذا الكون من الإعجاز الكوني ونحوه, فلا يُقَرُّ له بالإسلام حتى يأتي بتوحيد الألوهية, وأن هذا التوحيد الذي قرره وأقر به قد أقر به المشركون من قبله, حينئذ كون النبي صلى الله عليه وسلم مع .. الآيات المتنزلة بكون المشركين مقرين بتوحيد الربوبية ومع ذلك يُصِرُّ النبي صلى الله عليه وسلم على قتالهم, يدل ذلك على أن توحيد الربوبية لم يدخلهم في الإسلام, ولا يُحكم عليهم بـ بالإسلام لمجرد الاعتراف بصفات الرب جل وعلا, (وأن ذلك لم يدخلهم في الإسلام) بل بقوا على أصل شركهم وبل بقوا على .. أصل شركهم, ثم أورد آية تدل على هذا والآيات كثيرة جداً في .. الكتاب .

إذا هذه القاعدة الأولى دلت على أن التوحيد ليس هو الإقرار بالربوبية فقط, دلت على أن التوحيد الذي طُولِبَ به الخلق والذي قال الله عز وجل فيه { إِلَّا لِيَعْبُدُونِ } أي يفردوني بالعبادة ليس هو الإقرار بتوحيد الربوبية فقط, أن الشرك ليس هو الشرك في الربوبية فقط, حينئذ الشرك قد يكون في الربوبية وقد يكون في الألوهية وقد يكون في الأسماء والصفات, فأعظم أنواع الشرك هو الشرك الواقع في .. الألوهية, بل ليس هناك أحدٌ أشرك في الربوبية إلا شواذٌ من الخلق, وإلا فكل الأمم تقر بتوحيد الربوبية في .. الجملة, وهو ما يُقرره حتى علماء الكلام من المتأخرين ويقولون إن الله واحدٌ في ذاته لا قسيم له وواحدٌ في صفاته لا شبيه له وواحدٌ في أفعاله لا شريك له, هذا هو التوحيد الذي يقرره علماء الكلام من الجهمية والمعتزلة والأشاعرة والماتُريدية وهو توحيد الربوبية فحسب, ولذلك أخطئوا في مفهوم (لا إله إلا الله), وفسروا (لا إله) أي لا قادر على الاختراع إلا الله, وهذا هو توحيد الربوبية, فمن لم

يأتي بتوحيد الربوبية وفسر (لا إله إلا الله) بهذا المعنى لم يكن مسلماً البتة, فتوحيد الربوبية لا يُدخِل أحداً في الإسلام, وليس توحيد الربوبية هو المطلوب مما حصل فيه الابتلاء, وهذا بالنظر في حال المشركين الذين أُرسِلَ إليهم النبي صلى الله عليه وسلم كما أخبر الله تعالى عنهم في ..كتابه .

وتوحيد الربوبية هو مطلوبٌ تبعاً لا أصالة, بمعنى أنه لا يُقال أن الرسل بُعِثوا من أجل تحقيق توحيد الربوبية, وإنما بُعثوا من أجل تحقيق توحيد الألوهية, هذا هو الأصل, وتوحيد الربوبية تُقام به الحُجة على ما أنكروه من .. توحيد الألوهية, ولذلك ما أقر الله عز وجل بحالهم مما ذكره عنهم إلا وألزمهم بالإقرار بتوحيد .. الألوهية, حينئذ صار توحيد الربوبية حجة عليهم, وهذه طريقة القرآن كما هي معلومة لمن تتبع ذلك, فالتوحيد الذي أُرسِلَ به الرسل هو معنى (لا إله إلا الله), معنى (لا إله .. إلا الله), وهو توحيد العبادة, كلمة التوحيد هي قول لا إله إلا الله, ودل على ذلك .. وهذا متفقٌ عليه بين السلف وكذلك المتكلمون ولكن خالفوا في جهة المعنى, وهذا الكلمة (لا إله إلا الله) جاء تفسيرها في الكتاب والسنة, وأنه لا معبود بحقٍ إلا الله, حينئذ حملها على معنى توحيد الربوبية حملٌ فاسد, لا يدل عليه لا اللغة ولا يدل عليه الشرع وإذا كان كذلك فهي باطلة من جهتين, يعني حمل (لا إله إلا الله) على معنى توحيد الربوبية باطلٌ من جهتين, من جهة اللغة لأن الإله ليس بمعنى الرب وليس بمعنى القادر على .. الاختراع, كذلك جاء تفسيرها في الشرع في عدة مواضع, بيّن الله عز وجل المراد من هذه الكلمة, وإذا كان كذلك حينئذ نقول لا إله إلا الله توحيد الألوهية له حقيقة شرعية, كما أننا نفسر الصلاة والزكاة والصيام والحج بما أراده الله عز وجل, فكذلك توحيد الألوهية له مفهومٌ يُفَسَّرُ بما أراده الله عز وجل, والدليل على أن التوحيد هو قول (لا إله إلا الله) جاء في حديث معاذ (إنك تَقدُم على قوم من أهل الكتاب فليكن أول ما تدعوهم إليه إلى أن يوحدوا الله) وفي رواية (إلى أن يقولوا لا إله إلا الله) وفي رواية (إلى إن يشهدوا أن لا إله إلا الله) فدل ذلك على أن (لا إله إلا الله) هي التوحيد, فكلمة التوحيد هي التوحيد بعينه ولا فرق, ولذلك جاء في رواية (أول ما تدعوهم إليه شهادة ألا إله إلا الله) وفي رواية (فليكن أول ما تدعوهم إليه عبادة الله) هذه روايات كلها صحيحة وكلها متفقة المعنى فتوحيد الله هو (لا إله إلا الله) وهو إفراد الله تعالى بـ بالعبادة, فدل ذلك على أن التوحيد لم يجعله الله عز وجل لأحدٍ من البشر أن يتدخل في مفهوم (لا إله إلا الله), بل فسره على أتم الوجوه, وهو واضحٌ بيّن, وجاء في حديث (من قال لا إله إلا الله وكفر بما يُعبَد من دون الله حرُمَ ماله ودمه) وفي رواية عند مسلم (من وحّد الله) حينئذٍ أطلق التوحيد على (لا إله إلا الله) لأنه قال في رواية (من قال لا إله إلا الله), وفي رواية عند مسلم (من وحّد الله) فدل على أن التوحيد هو قول (لا إله إلا الله) وهو تفسيره بـ .. بالعبادة, وجاء كذلك في حديث جابر في المناسك (فأهَلّ بالتوحيد) فأهلّ .. بالتوحيد .

كذلك أخبرنا الرب جل وعلا, أن جميع الرسل قد دعوا إلى (لا إله إلا الله) وفسرها في القرآن فقال عز وجل { وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ } أي لا معبود حقٌ إلا .. إلا الله, { فَاعْبُدُونِ } أي لا تعبدوا غيري, وفسرها في قوله { وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ }, { أَنِ اعْبُدُواْ } هذا بمعنى (إلا الله), و{ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ } هذا بمعنى (لا إله) .

والرسل كانوا يأتون أقوامهم فيقولون لهم { اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ } دل ذلك كله على أن التوحيد المراد به توحيد الألوهية وأن معنى (لا إله إلا الله) هو معنى لا معبود بحق إلا الله, فإذا فُسِّر حينئذ بـ توحيد الربوبية كما فعله كثير من المتأخرين حينئذ أخطئوا الطريق وضلوا, وأضلوا من بعدهم .

قال (والدليل قوله تعالى: { قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ }) هذا يدل على أنهم أقروا بهذه .. المفردات, وثَمَّ آيةٌ واضحةٌ بيّنةٌ نصّ الرب جل وعلا على أنهم جمعوا بين الإيمان والشرك, كما في قوله تعالى { وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ }, { وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللّهِ } إذا هم آمنوا, هنا أثبت الإيمان لهم وأسنده إليهم وأخبر بأنه واقعٌ منهم فدل ذلك على وجود الإيمان, ولما قال { إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ } دل على أن الإيمان السابق المراد به هو الاعتراف بمفردات توحيد الربوبية وليس المراد به توحيد الألوهية لقوله { إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ }, فكان من إيمانهم إذا سُئلوا من

خلق السماوات والأرض ؟ قالوا الله, إذا اعترفوا بـ صفة الخلق, وإذا قيل لهم من ينزل القَطْرَ ؟ أي من السماء, قالوا الله ثم مع ذلك يعبدون الأصنام ويشركون, فيعترفون ويؤمنون بكون الله عز وجل هو الخالق هو المالك هو المدبر ومع ذلك يصرفون أنواع العبادات إلى غيره جل وعلا, ومع ذلك لم يحكم عليهم الرب جل وعلا بكونهم مسلمين بل أرسل إليهم الرسل وقاتلوهم على .. على ذلك .

{ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ... } الآية, قال البغوي في الآية التي ذكرها المصنف رحمه الله تعالى { قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ } أي من السماء بالمطر ومن الأرض بالنبات, من الذي ينزل المطر ؟ الله, من الذي ينبت الأرض ؟ الله, { أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ } أي من إعطائكم السمع والأبصار, { وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ } يخرج الحي من النطفة والنطفة من الحي, { وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ } أي يقضي الأمر, { فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ } هذا هو الشاهد, أخبر الله تعالى عنهم أنهم يسندون تلك الأفعال إلى الرب جل وعلا, { فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ } هو الذي يفعل هذه الأشياء, { فَقُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ } استدل على توحيد الألوهية بإقرارهم بتوحيد الربوبية, بمعنى أن توحيد الربوبية يعتبر دليلاً من أدلة إثبات توحيد الألوهية, { فَقُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ } أفلا تخافون عقابه في شرككم, وقيل أفلا تتقون الشرك مع هذا الإقرار, ثم قال { فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ } أي الذي يفعل هذه الأشياء هو ربكم, { الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ } أي فأين تُصرفون عن عبادته وأنتم مقرون به باعترافكم بهذه الأفعال التي لا تكون إلا لله عز وجل, حينئذ أراد المصنف رحمه الله تعالى بآية واحدة أن يقرر هذه القاعدة وهي أن المشركين الذين قاتلهم النبي صلى الله عليه وسلم قد أقروا بتوحيد الربوبية ومع ذلك قاتلهم ومع ذلك لم يُدخلهم في الإسلام, لئلا يلتبس عليك أيها المسلم في التفريق بين المسلم الموحد وبين المشرك في كونه قد أتى بتوحيد .. الربوبية, فإتيانه بهذا التوحيد لا ينفعه البتة إلا إذا ضَم إليه توحيد الألوهية وهو إفراد الرب جل وعلا بـ العبادة, ثم انتقل إلى مسألة القاعدة الثانية ويأتي الحديث في الدرس القادم بإذن الله تعالى, والله أعلم .
وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

الدرس الثاني
بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمدٍ وعلى آله وصحبه أجمعين, أما بعد
شرعنا في القواعد الأربع التي أراد شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى أين يجعلها مَيْزَاً وفاصلاً بين المسلم و.. الكافر, وبين الموحد و.. والمشرك, حينئذ إذا عرف هذه القواعد الأربع استطاع أن يميز بين النوعين, ولئلا يلتبس عليه الحكم بـ .. الإسلام لمن هو كافر, وكذلك العكس بـ .. بالعكس .

أخذنا القاعدة الأولى وهي مفادها أن المشركين الذين بُعث فيهم النبي صلى الله عليه وسلم كانوا مقرين بتوحيد الربوبية, بمعنى أنهم كانوا يقرون يجملة من .. من الأفراد, التوحيد معلوم أنه ثلاثة أقسام
توحيد الربوبية وهو إفراد الله تعالى بـ .. بأفعاله كالخلق والرَزْق والملك ونحو ذلك .
وتوحيد الألوهية وهو إفراد الله تعالى بـ أفعال العباد, بمعنى أن العبادة لا تتوجه إلا للخالق جل وعلا .
وتوحيد الأسماء والصفات .

المشركون في الجملة كانوا مقرين بالنوع الأول وهو توحيد الربوبية, وهو الذي عَنْوَنَ له بهذه القاعدة .. القاعدة النفيسة, لئلا يلتبس على المرء, لأن من أثبت وصف الخلق لله عز وجل قد كفى في كونه مسلماً, بل لابد أن ينضم إلى ذلك الإقرار بتوحيد الألوهية, إذا (أن تعلم أن الكفار الذين قاتلهم رسول الله صلى الله عليه وسلم مقرون بأن الله تعالى هو الخالق المدبر, وأن ذلك لم يدخلهم في الإسلام) هذا محل وفاق وإجماع من أهل السنة و.. والجماعة, ثم ليُعلَم أن القول بـ .. بأن المشركين مقرون بتوحيد الربوبية ليس المراد به أنهم أقروا بهذا القسم من التوحيد على وجه الكمال, هذا لا يقول به أحدٌ من أهل العلم, ولا يُعتَرض بمن أطلق القول في هذا المقام بأنه يَرِدُ عليه لأن بعض المشركين قد وقعوا في شرك الربوبية, وكل من قال بأنهم أثبتوا توحيد الربوبية ليس المراد بأنهم أثبتوها على وجه الكمال وإنما المراد به تقرير ما ثبت في القرآن عن المشركين من اعترافهم بالخالق والرازق المدبر, هذه من صفات الربوبية وخصائصها وقد آمن به المشركون وقد نص القرآن على .. على ذلك, ثم هذا ليس بحكمٍ مُطَّرِد على جميع المشركين, إذ وُجِدَ منهم من أشرك في الربوبية, وكذلك وجد منهم من فرق بين خصائص الربوبية, فآمن ببعضها دون .. دون بعض, وغالبهم إنما أوقعوا .. أو وقعوا في الشرك في .. في العبادة, حينئذ هذه القاعدة على .. على وجهها ولا اعتراض على المصنف رحمه الله تعالى بأنه قد وُجِدَ من أشرك في توحيد الربوبية, نقول المراد به ما جاء في النص والتنصيص عليه في .. في القرآن, ثم اعلم أن جملة ما ترجع الصفات هو إفراد الله تعالى بالخلق والملك والتدبير, وهذه الثلاثة قد آمنوا بها وسلّموا بها, حينئذ ما وقع منهم من الشرك في بعض أفراد الربوبية إنما آمنوا بالأصل وهو الخلق وخالفوا في شيءٍ من الفرع, وآمنوا بالأصل كذلك في الملك وخالفوا في بعض الفروع, وآمنوا بالأصل وهو التدبير وخالفوا في بعض الفروع, إذا الأصول المعتمدة في باب الربوبية وهي هذه الثلاث الصفات قد آمنوا وسلّموا بها وأقروا بها كما جاء في .. في القرآن .

[القاعدة الثانية]

أنهم يقولون: ما دعوناهم وتوجهنا إليهم إلا لطلب القربة والشفاعة. فدليل القربة قوله تعالى: { وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ } . ودليل الشفاعة، قوله تعالى: { وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ } . والشفاعة شفاعتان: شفاعة منفية، وشفاعة مثبتة: فالشفاعة المنفية: ما كانت تطلب من غير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله، والدليل قوله تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لا بَيْعٌ فِيهِ وَلا خُلَّةٌ وَلا شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ } . والشفاعة المثبتة: هي التي تطلب من الله، والشافع مكرم بالشفاعة، والمشفوع له من رضي الله قوله وعمله - بعد الإذن - كما قال تعالى: { مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ } .

القاعدة الثانية .. وأراد بها المصنف رحمه الله تعالى أن يبين دين المشركين وحجتهم في .. في ذلك, وهذه القاعدة كسابقتها قطعية يقينية بمعنى أنها ليست ظنية يمكن أن يُجادل فيها, لماذا ؟ لأنه مأخوذة ـ الأولى والثانية ـ من الاستقراء والتتبع لنصوص الوحيين, فدل ذلك على أن مُفاد النصوص أنهم أقروا بتوحيد الربوبية في الجملة وكذلك بيان دين المشركين الذين بُعِثَ النبي صلى الله عليه وسلم من أجل دعوتهم إلى التوحيد ثم قاتلهم على ما هم عليه فذلك مُبَيّنٌ في .. في الشريعة, كما سبق معنا مراراً بأن التوحيد له حقيقة شرعية وكذلك الشرك له حقيقة شرعية, ثم كل من الحقيقتين قد تكفّل الله عز وجل ببيان التوحيد على وجه الكمال ولم يدع لبشرٍ ـ أياً كان هذا البشر ـ أن يتدخل في مفهوم التوحيد, كذلك الشرك له حقيقة شرعية وقد بينها الرب جل وعلا ولم يتركها لـ .. للبشر .

إذا القاعدة الثانية قطعية يقينية, لأنها مما أجمع عليه أهل السنة والجماعة, ومفادها أن الشرك إنما وقع من العرب لأناس صالحين, لأن من دعاهم الإمام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى من المشركين اعترضوا عليه بأنهم إنما سألوا واستغاثوا بأُناسٍ صالحين, وأولئك الذين بُعِثَ فيهم النبي صلى الله عليه وسلم إنما توجهوا لـ .. أحجار وأصنام فهي لا تعي ولا تدرك, والفرق بين النوعين جعلوا الحكم مبنياً عليه, فثَمَّ فرقٌ بين من دعا صالحاً وثَمَّ فرقٌ بين من دعا حجراً وشجراً, قالوا أولئك الذين بعث النبي صلى الله عليه وسلم إنما كفّرهم لأنهم عبدوا أصنام, ونحن ما عبدنا أصنام إنما عبدنا صالحين, هذه شبهة وقعت لهم, إذاً أن الشرك إنما وقع من العرب لأناس صالحين وأن الشرك وقع بالآلهة لأجل طلب القربة و.. والشفاعة, لا لأنها مستقلة بشيءٍ من .. الربوبية أو الألوهية ولكنهم عبدوها تبعاً لا .. لا استقلالاً, إذا عبدوا صالحين ثم لم يعبدوا هؤلاء الصالحين استقلالاً, بمعنى أنهم ادعوا أن هذا الصالح المقبور إنما هو إله مستقل يتصرف في الكون وإنما أرادوا أن يجعلوا واسطة بينهم وبين الله تعالى, حينئذ اعترضوا بمثل هذا على الإمام رحمه الله تعالى, فبيّن لهم أن دين المشركين هو ما عليه هؤلاء من أنهم عبدوا من الأحجار والأصنام كما أنهم عبدوا كذلك من الصالحين من الأنبياء والرسل وغيره, وكذلك حجة أولئك المشركين هي أنهم إنما عبدوهم من أجل القربى والشفاعة, يعني لم يجعلوهم آلهة مستقلة وإنما عبدوهم على جهة التبعية, حينئذ لا فرق بين .. بين النوعين, فهي آلهةٌ وسمّاها الله تعالى كذلك { آلهة } وهم اعترفوا بذلك { أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا }, وهذه عقيدة المشركين تنبني على هذه الأمور :
أولاً الاعتراف لله تعالى بالخلق والتدبير يعني اعترفوا بجملةٍ من مفردات توحيد الربوبية .
ثانياً الاعتراف بأن آلهتهم لا تخلق ولا ترزق ولا تنفع ولا تضر, اعترفوا بهذا .
ثالثاً اتخذوها وسطاء عند الله تعالى في قضاء الحوائج وصرفوا لها من العبادات التي لا يستحقها إلا الله تعالى .
فدين المشركين مركبٌ من هذا وهم الذين بُعِثَ النبي صلى الله عليه وسلم لقتالهم وقد كفرهم وحكم عليه بـ بالشرك, مع كونهم قد اعترفوا بأن الله عز وجل هو الخالق ولا خالق غيره وأن الله عز وجل منفرد بالملك والتدبير, ثم اعتقدوا أن هذه الآلهة التي عبدوها لا تنفع ولا .. ولا تضر, ثالثاً لم يجعلوها آلهة مستقلة وإنما هي .. وسطاء بينهم وبين الله تعالى, وهذا هو جملة عقيدة المشركين .

نأخذ من هذا أن المشركين يُثبتون الإلهية لله تعالى, نأخذ من هذا أن المشركين لم ينفوا عن الخالق جل وعلا كونه إلها, بل أقروا أنه .. إله, وجعلوا هذا الوصف مشتركاً بين الخالق جل وعلا وبين .. وبين آلهتهم, فهم معترفون, ولذلك قالوا { أَجَعَلَ الْآلِهَةَ }, ومنها الإله الرب جل وعلا { إِلَهًا وَاحِدًا }, حينئذ أثبتوا بأن الله تعالى إله وبأن هذه المعبودات كذلك آلهة وسووا بينهما من حيث الوصف, أطلقوا على هذا أنه إله وعلى هذا أنه إله, ولذلك لما قيل لهم قولوا لا إله إلا الله, لا معبود بحقٍ إلا الله, قالوا { أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا }, إذا أنكروا ماذا ؟ أنكروا نفي وصف الإلهية عن هذه المعبودات, مع كونهم قد أقروا بأن الله عز وجل متصفٌ بـ .. بالألوهية, إذاً انهم يثبتون الإلهية لله تعالى وأثبتوها للآلهة تبعاً لا استقلالاً, حينئذ تُعبَدُ تبعاً لا .. لا استقلالاً, وهذا دين المشركين قائم على هذا النوع .

إذاً القاعدة الثانية أراد المصنف رحمه الله تعالى أن يبيّن أن المشركين عبدوا صالحين وهذه يفصلها بالقاعدة الثالثة, وأن حجتهم في الاستدلال على صرف العبادة لغير الله أنها وسطاء بينهم وبين الله تعالى, فقال رحمه الله تعالى (القاعدة الثانية) وهي شبهة المشركين, وهذه القاعدة قعدها في بيان حجة المشركين في صرف العبادة لغير الله عز وجل مع إقرارهم بأن الله عز وجل هو الخالق الرازق المدبر, (أنهم يقولون) أي أن الحال والشأن, يقولون (في

حجتهم) إذا قيل لهم لم عبدتم هذه الآلهة وأُنكِرَ عليهم هذا الشأن, قالوا (ما دعوناهم وتوجهنا إليهم إلا لطلب القربة والشفاعة) (ما دعوناهم), (ما) هذه نافية, (ما) هذه نافيةٌ, و(دعوناهم) هذا متعلق بـ .. بالعقلاء, و(وتوجهنا إليهم) هذا متعلق بالجمادات, (إلا لطلب القربة والشفاعة), (إلا) هذه للإيجاب, حينئذ وقع في جوابهم أعلى درجات الحصر بمعنى أنهم لم يفعلوا هذه العبادة التي صرفوها لهذه المعبودات إلا لشيءٍ واحدٍ لا لسواه وهو طلب القربة والشفاعة, والقربة والشفاعة بمعنى .. بمعنى واحد, فحينئذ جعلوا هذه المعبودات وسائط بينهم وبين الله عز وجل, والشبهة وقعت عندهم في القياس الفاسد وهو أنهم لما رأوا ملوك الدنيا أنه لا يمكن أن تُقضَى حوائجهم إلا بجعل واسطة بينهم وبين هؤلاء الملوك, الملك لا يُدخَلُ عليه مباشرة, وإنما يُجعلُ بينك وبينه واسطة, وكلما كانت هذه الواسطة أقرب إلى الملك فهو أقرب في قضاء الحاجات, حينئذ قاسوا الرب جل وعلا الخالق المتفرد بـ صفة الملك والملكوت, قاسوا الخالق جل وعلا على ملوك الدنيا, حينئذ جعلوا بينهم وبين الله تعالى في قضاء الحوائج وسائط, كما يجعلون بينهم وبين ملوك الدنيا وسائط, وهذا قياس فاسد بل من أفسد أنواع القياس, إذاً (ما دعوناهم وتوجهنا إليهم) وهذا أي المعبودات من دون الله تعالى, وهذا حصرٌ (إلا لطلب القربة والشفاعة) فهم لا يعتقدون أنها آلهة مستقلة بل هي وسائط, (إلا لطلب القربة) إلى الله تعالى بهم, (والشفاعة) هذا اسمٌ من شفع يشفعُ إذا جعل شيئاً على اثنين أو بين اثنين, إذا جعل الشيء بين .. بين اثنين, وفي الاصطلاح هي التوسط للغير لجلب منفعة أو دفع مضرة, التوسط للغير لجلب .. منفعة أو دفع مضرة, حينئذ نأخذ من هذه الجملة أنهم قد أقروا بالألوهية للرب جل وعلا وأنهم إنما صرفوا العبادة لغير الله سبحانه من أجل طلب القربة و.. الشفاعة .

(فدليل القربة) يعني ما الذي دلل على أن حجة المشركين هذه, لأن ما وقع في عهد النبي صلى الله عليه وسلم لابد أن يكون منقولاً, وقد دلل على ذلك نص القرآن, قد أجمع أهل السنة والجماعة على هذا المفهوم, (فدليل القربة) الفاء فاء الفصيحة, (قوله تعالى { وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاء مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى }), { وَالَّذِينَ } أي المشركون, { اتَّخَذُوا } اتخذ بمعنى جعل وصيّر, { مِن دُونِهِ } أي من دون الله تعالى, { أَوْلِيَاء } الأولياء جمع ولي وهو يصدقُ على الأصنام والملائكة وعيسى وكل ما عُبِدَ من دون الله عز وجل فإنما يعتقد من عبده أنه ولي, { وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاء } قالوا { مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى } (زلفى) فُعْلَى اسمٌ أُقيم في مقام المصدر أي إلا ليقربونا إلى الله تقريبا, قال قتادة : وذلك أنهم إذا قيل لهم من ربكم ؟ ومن خلقكم ؟ ومن خلق السماوات والأرض ؟ قالوا الله, فيُقال لهم ما معنى عبادتكم الأوثان ؟ قالوا ليقربونا إلى الله زلفى, إذاً ليقربونا إلى الله زلفى هذه هي حجة المشركين في كل زمانٍ ومكان, كما أن المشركين في عهد النبي صلى الله عليه وسلم قد احتجوا بهذه الحجة والدليل الذي معنا نصٌ في هذا المقام حينئذ هذه حجةٌ ثابتةٌ في كل زمانٍ ومكان, ما من مشرك إلا ويصرف نوعاً من أنواع العبادة لمعبوده ثم يدعي أنه ليس إلها مستقلاً وإنما جعله واسطةً بينه وبين الله عز وجل, حينئذ هذه المعاني .. نقول .. قد عُلِقَت عليها أحكام, فمتى ما وُجِدَت هذه المعاني رتبنا عليه الحكم وهو وجود الشرك, إذ هذا هو حقيقة الشرك, فمتى ما جعل بينه وبين الله تعالى واسطة يصرف إليه نوعاً من أنواع العبادة هنا ثَمَّ الشرك الذي حكم الله عز وجل على صاحبه أنه خالدٌ مخلدٌ في .. في النار, إذا { مَا نَعْبُدُهُمْ } أي قالوا, { مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا } (ما, إلا) هذه أعلى صيغ الحصر, ففي حصر قولهم ما نعبدهم لعلة من العلل إلا لأجل التقريب, إذا فهم أرادوا ماذا ؟ أرادوا ما عند الله, أرادوا .. ما عند الله, يعني المشرك إنما أراد أن يصل إلى رضوان الله عز وجل لكنه بطريق غير مأذون له شرعاً .

{ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُم }, { إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى } عرفنا المراد بـ زلفى أي تقريبا, وهم لا يسمونه شركاً وإنما يسمونه تقرباً وتوسلاً وشفاعةً ونحو ذلك من الأسماء البرّاقة التي يُنفى أو يُسلب اسم الشرك عنها وتوضع أسماء مرادفة لـ .. للمعنى والعبرة بالمعاني, العبرة بـ .. بالمعاني .

{ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُم } يعني يوم القيامة, { فِي مَا هُمْ فِيهِ } يعني في الذي هم فيه من أمر الدين, { يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ } فقال إن الآلهة تشفع وهو كاذب وهو كافر وكفى باتخاذ الآلهة دونه كذباً وكفراً وهذا مجرد دعوى, لأن الذي يطلب القربى إلى الله تعالى لا يتقرّب إليه بما يكرهه, ودليل الشفاعة قوله تعالى .. إذا دل النقل السابق عن أن القربة هي دعوى المشركين وهي حجتهم في صرف العبادة لغير الله عز وجل .

(دليل الشفاعة قوله تعالى { وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ } ويعبدون .. أخبر الله عز وجل بأنهم يعبدون وهذا هو أصل الشرك صرف العبادة لغير الله عز وجل, { وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ } يعني سوى الله عز وجل, { مَا } اسم موصول بمعنى (الذي), فيصدق على كل ولي يُدَّعَى سواء كان حجراً أم شجراً ملكاً مقرباً أم نبيناً رسولاً أياً كان نوعه حياً أو ميتاً, نقول هذا يسمى .. يسمى إلهاً ويسمى ولياً, ولذلك جاءت الصيغة هنا بـ .. بصيغة العموم, { مَا لا يَضُرُّهُمْ } يعني شيئاً, { وَلا يَنْفَعُهُمْ } ولا .. ينفعهم في الدنيا ولا في الآخرة وهم يعترفون, لذلك سبق في بيان مذهب المشركين ودين المشركين أنهم يعترفون أن آلهتهم لا تنفع ولا تضر, وإذا كانت لا تنفع ولا تضر فلما يُرجى منها .. ما لا يأذن به الرب جل وعلا ؟, { وَيَقُولُونَ هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ } هذا محل الشاهد, يقولون إذا أُحتُجَ عليهم أنهم عبدوا غير الله, ولماذا تعبدون غير الله مع اعترافكم بأن الله تعالى هو الخالق الرازق, قالوا { هَؤُلاءِ }, الذين عُبِدوا من دون الله, { شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ }, أي وسطائنا عند الله تعالى في قضاء حوائجهم ويطلبون لنا ما نريد والله عز وجل لا يردهم لقربهم منه سبحانه .

إذا في هاتين الآيتين بيان واضح شافي بأن حجة المشركين في الزمن الذي بُعث فيه النبي صلى الله عليه وسلم مع كونهم مشركين قد صرفوا أنواعاً من العبادات لغير الله وقد حكم عليهم الشارع بأنهم كفار مشركون ولم يُقبل منهم توحيد الربوبية مع إقرارهم بجملة منه, أن حجتهم إنما جعلوا هذه المعبودات وسائط بينهم وبين الله عز وجل, إذا لا يدّعون أنها آلهة مستقلة, ولا يدعون أنهم يعبدونها على جهة الاستقلال وإنما على جهة التبع .

ثم قال المصنف رحمه الله تعالى (والشفاعة شفاعتان), (شفاعتان) هذا مفهوم .. مفهوم عدد ودليله التتبع و.. والاستقراء لنصوص الوحي, لأن الشفاعة محصورة في .. في نوعين, حيث وُجِدَت فيه آيات كثيرة في نفي الشفاعة وآيات كذلك كثيرة في .. إثباتها, آية النفي نحو قوله تعالى { لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِ وَلِيٌّ وَلاَ شَفِيعٌ } هذا نفيٌ مطلق, { مَا لَكُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ }, والإثبات نحو قوله تعالى { وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً إِلَّا } إذا تُغني, حينئذ أثبت نوعاً من .. من الشفاعة, { إِلَّا مِن بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَى }, { وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى } هاتان الآيتان أثبتت أن نوعاً من الشفاعة مُثبَت, لكنه بشرط, والآيتان الأوليان نفت الشفاعة على جهة الإطلاق, ولذلك قال المصنف هنا رحمه الله تعالى (والشفاعة شفاعتان) بدليل التتبع والاستقراء لنصوص الوحي, إذ جاءت في نصوص منفية على جهة الإطلاق وجاءت في نصوص أُخَر مثبتة ولكن مقيدة بـ .. بشرطين, (شفاعة منفية، وشفاعة مثبتة) شفاعة منفية نسبة إلى النفي وهو ما نفاه الله عز وجل وحكم عليه بـ .. بالبطلان لقوله { وَلاَ شَفِيعٌ } وقوله .. نعم .. { مَا لَكُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ }, { لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِ وَلِيٌّ وَلاَ شَفِيعٌ } دل ذلك على أن النفي هنا مُسَلَّطٌ على الشفاعة ولذلك صحَّ الاشتقاق فقيل (شفاعة منفية), إذا المنفية هي ما نفاه الله عز وجل وحكم عليه بـ .. بالبطلان, و(شفاعة مُثبتة) من الإثبات وهو أقره الله عز وجل كما في الآيتين الأُخريين, فإن الله عز وجل أثبت الشفاعة لكنها مقيدة بـ .. بقيود .

(فالشفاعة المنفية: ما كانت تطلب من غير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله), (فالشفاعة) الفاء الفاء الفصيحة, الشفاعة المنفية وهي التي تكون من غير إذن الله تعالى ولا رضاه, بمعنى أننا إذا عرفنا الشفاعة المثبتة وهي ما وُجد فيه شرطان, شرط الإذن والمراد به الإذن الكوني, الثاني إذن للشافع والثاني رضاه عن المشفوع, عن الشافع و.. والمشفوع, فمن وُجدت فيه هذان الشرطان وتحققت فيه فهو شفاعة مثبتة, ماعداه فهو شفاعة منفية, فكل ما لم يتحقق فيه الشرطان فهو شفاعة منفية, وهي التي تكون من غير إذن الله ولا رضاه وتكون بطلبها ممن لم يُمَكَّن من ذلك كالميّت, ولذلك قال المصنف هنا رحمه الله تعالى (ما) أي التي, شفاعة التي كانت تُطلَب من غير الله, تُطلَب, شفاعة طلب, وإذا كانت طلباً حينئذ الطلب نوعٌ من أنواع الدعاء, فإذا كان كذلك من المقرر أن الدعاء كله جملة وتفصيلاً عبادة, وإذا كان كذلك فصرف بعض أنواع العبادة ـ ولو كان من جزء واحد أو مفهوم واحد ـ صرفه لغير الله عز وجل يُعتبر شركاً أكبر, وهذا الذي بيّن أهل العلم في كون الشفاعة تعتبر شركاً أكبر, لماذا ؟ لأن الشفاعة طلب, والطلب نوعٌ من أنواع الدعاء, والدعاء عبادة, ولا شك أن العبادة لا تكون إلا للخالق جل وعلا, فإذا صرف شيئاً من أنواع الدعاء حينئذ يكون قد وقع في .. الشرك الأكبر, إذا (المنفية) ما كانت تُطلَب من غير الله, أي الشفاعة طلب وهو نوع من .. من الدعاء, فتوجه إلى غير الله عز وجل بنوع من .. من الدعاء, (فيما لا يقدر عليه

إلا الله), هذا قيد لابد منه, (فيما) أي في الذي, أو شيء, (لا يقدر عليه إلا الله) عز وجل, كمغفرة الذنب ممن لا يملك ذلك, لا شك أن الذي لا يملك غفران الذنوب هو الله عز وجل, فلو طلب من حيٍّ أو ميْتٍ غفران الذنب حينئذ نقول هذا قد سأل ودعا غير الله عز وجل, فتوجه بالدعاء إلى غيره عز وجل ولو كان بنوع واحد من أنواع الدعاء كسؤال المغفرة حينئذ نقول قد وقع في الشرك الأكبر لكون قد صرف نوعاً من أنواع الدعاء أو العبادة لغير الله عز وجل, إذاً الشفاعة المنفية ما كان فيها شرك والدليل على نفي هذه الشفاعة { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ } هذا أمر بـ .. بالإنفاق أو على جهة العموم يشمل الصدقة الواجبة والصدقة المستحبة, { مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لا بَيْعٌ فِيهِ وَلا خُلَّةٌ وَلا شَفَاعَةٌ } هذا محل الشاهد, فنفى سبحانه كل أسباب النجاة والخلاص من .. من العقوبة, ثم قال { وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ }, إذا { لا بَيْعٌ فِيهِ وَلا خُلَّةٌ وَلا شَفَاعَةٌ } هذه هي أسباب النجاة, أي لا يُباع أحد من نفسه ولا يفاد بمال لو بذله ولو جاء بملء الأرض ذهباً, ولا تنفعه خلة أحد البتة, يعني صداقتهُ بل ولا نسابتهُ, { وَلا شَفَاعَةٌ } أي ولا شفاعة شفيعٍ مطلقاً, ثم قال { وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ } هذا مبتدأ محصور في .. في خبره, أي ولا ظالمَ أظلمُ ممن وافى الله يومئذ كافراً, حينئذ نفى أسباب النجاة كلها جل وعلا والشاهد من النص قوله { وَلا شَفَاعَةٌ } (لا) هذه نافية, وهي نافية لـ الجنس, و(الشفاعة) هذا اسمها, حينئذ هي من صيغ العموم فيعم جميع أنواع الشفاعة .

ثم قال (والشفاعة المثبتة) .. وهي النافعة وهي التي تُطلب من الله عز وجل, تُطلب من الله عز وجل, فيقول الموحد حينئذ إذا طلبها من خالقه جل وعلا : اللهم شفِّع فيَّ رسولك, (اللهم) هنا التوجه هنا إلى الله عز وجل, (شفع في رسولك), ولم يقل : يا رسول الله اشفع لي, فرقٌ بين .. بين النوعين, قال : يا رسول الله, الخطاب هنا توجه إلى .. إلى ميْتٍ, وهذا دعاء, ولا يُتَوجَّه إلى النبي صلى الله عليه وسلم بشيءٍ من العبادات البتة, ولكن إذا قال : اللهم, حينئذ دعا الله عز وجل وسأله أن يشفِّع فيه رسوله صلى الله عليه وسلم, فتُطلب الشفاعة من الله عز وجل ولا تُطلب من المخلوق, لأن الشفاعة طلب الدعاء فهي نوع من أنواع الدعاء, فإذا سألها المخلوق صار دعوة غير الله, هذا شركٌ أكبر, إذا طلب الشفاعة من غير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله ـ من الأموات ونحو ذلك ـ شركٌ أكبر, لأنها دعاء والدعاء عبادة, وصرف العبادة لغير الله شرك أكبر .

(والشفاعة المثبتة: هي التي تُطلب من الله) تعالى, ثم قال المصنف (والشافع مكرم بالشفاعة، والمشفوع له من رضي الله قوله وعمله بعد الإذن), (والشافع مُكرمٌ) يعني الذي يشفع,كالنبي صلى الله عليه وسلم وهي ليست خاصة إلا في بعض المقامات بالنبي صلى الله عليه وسلم, وهي عامة, (والشافع مكرم) لكمال علم الله وقدرته وسلطانه لا يحتاج سبحانه لأحد أن يشفع عنده, ولهذا لا تكون الشفاعة لأحد عنده إلا بإذنه, والشفاعة يُقصَد بها أمران, الشفاعة التي يأذن الله عز وجل بها أمران, أولاً إكرام الشافع كما قال المصنف هنا (والشافع مكرم) والذي كرمه الله عز وجل, حينئذ صار مكرماً, ثانياً نفع المشفوع له بسبب شرعه, نفع المشفوع له, بأن يشفع النبي صلى الله عليه وسلم مثلاً في أصحاب الكبائر بأن يخرجوا من النار, حينئذ انتفع المشفوع له لكن بسبب شرعي .. بسبب شرعي, (والشافع مكرم بالشفاعة) فالله يكرم من يشاء من عباده بأن يجعله شفيعاً, (والمشفوع له) من هو ؟, (من رضي الله قوله وعمله), يعني عمل القلب والجوارح, فلابد من القول ولابد من العمل بنوعيه, (بعد الإذن) يعني بعد أن يأذن الله عز وجل لمن يشاء والمراد بالإذن هنا الإذن الكوني, كما جاء هذان الشرطان في قوله تعالى { وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً إِلَّا مِن بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَى } يأذن .. قال ويرضى, فدل ذلك على أن ثَمَّ شرطين فللشفاعة شرطان الأول : الإذن من الله تعالى لقوله { أَن يَأْذَنَ اللَّهُ }, { وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ }, الثاني : رضاه عن المشفوع له لقوله { وَيَرْضَى } كم قال سبحانه { وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى } ويُستثنى من ذلك التخفيف عن أبي طالب كما هو معلوم في .. في محله, (كما قال تعالى { مَنْ ذَا الَّذِي }) يعني لا أحد, ({ يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ }), هنا أتى بدليل يدل على الإذن وقد نص على الرضا في قوله (من رضي الله قوله وعمله بعد الإذن) وهذا شرطان لا يكونان متحققين إلا بـ .. بالنص الشرعي .

إذا ثَمَّ شفاعتان, شفاعة منفية وشفاعة مثبتة, الشفاعة المثبتة لابد من تحقق شرطين, وهذه .. انتفاء الشرطين يدل على الشفاعة المنفية, والشفاعة المنفية هي التي فيها شرك, قال ابن تيمية رحمه الله تعالى : فهذه الشفاعة التي يظنها المشركون هي منفية يوم القيامة, يعني التوسط, كونهم يأتون إلى الأموات فيتوسطون بهذه الأموات ويجعلونها

واسطة بينهم وبين الله هو حقيقة الشفاعة, هو حقيقة .. الشفاعة, ولذلك لا فرق بين القربة و.. والشفاعة, هما بمعنى واحد, وقد ذكر الشوكاني ذلك عن أكثر المفسرين بأن القربة والشفاعة بمعنى واحد, وهي جعل وسائط بين العبد وبين الله عز وجل بأن يُصرَف لهذه الواسطة أنواعاً من .. العبادات, أو أنواعٌ من العبادات, قال ابن تيمية : فهذه الشفاعة التي يظنها المشركون هي منفية يوم القيامة كما نفاها القرآن, وأخبر النبي صلى الله عليه وسلم أنه يأتي فيسجد لربه ويحمده, لا يبدأ بالشفاعة أولاً, ثم يُقال له { ارفع رأسك وقل يُسمع وسَل تُعْطَهْ واشفع تُشَفَّع }, فيؤذن له بعد ما مضى, وقال أبو هريرة رضي الله عنه للنبي صلى الله عليه وسلم : من أسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة ؟ من أسعد الناس .. يعني الشفاعة لا تكون لأي أحد, فقال النبي صلى الله عليه وسلم : من قال لا إله إلا الله خالصاً من قلبه .

حينئذ هؤلاء المشركون ليس لهم نصيب من شفاعة النبي صلى الله عليه وسلم, لأن شفاعته إنما تكون في الموحدين فحسب, ولو كانوا مُخَلِّطين, وأما المشركون فالنص لا يشملهم البتة, من قال لا إله إلا الله خالصاً من قلبه, قال ابن تيمية : فتلك الشفاعة لأهل الإخلاص بإذن الله ولا تكون لمن أشرك, ولا تكون لمن أشرك, وحقيقته أن الله سبحانه هو الذي يتفضل على أهل الإخلاص فيغفر لهم بواسطة دعاء من أذن له أن يشفع ليكرمه وينال المقام المحمود فالشفاعة التي نفاها القرآن ما كان فيها شركٌ, ولهذا أثبت الشفاعة بإذنه في مواضع وقد بيّن النبي صلى الله عليه وسلم أنها لا تكون إلا لأهل الإخلاص والتوحيد . وقال رحمه الله تعالى في موضع آخر : سبب الشفاعة توحيد الله تعالى وإخلاص الدين والعبادة بجميع أنواعها له, فكل من كان أعظم إخلاصاً كان أحق بالشفاعة, فإن الشفاعة مبدأها من الله وعلى الله تمامها فلا يشفع أحدٌ إلا بإذنه وهو الذي يأذن للشافع وهو الذي يقبل في المشفوع له .

وقال ابن القيم رحمه الله تعالى : تأمل قول النبي صلى الله عليه وسلم لأبي هريرة رضي الله عنه وقد سأله : من أسعد الناس بشفاعتك يا رسول الله ؟ قال أسعد الناس بشفاعتي من قال لا إله إلا الله خالصاً من قلبه, قال ابن القيم : كيف جعل أعظم الأسباب التي تُنال بها شفاعته تجريد التوحيد, حينئذ هؤلاء المشركون الذين يُتعبون أنفسهم عند القبور ويصرفون أنواعاً من .. الأموال والذبح والنذر ونحو ذلك قربة إلى الله عز وجل أو قربة لهذه المعبودات من أجل أن تقربهم إلى الله تعالى هؤلاء من أبعد الناس .. بل هم أبعد الناس عن .. الشفاعة, عكس ما كان عند المشركين أن الشفاعة تُنال باتخاذهم أوليائهم شفعاء وعبادتهم وموالاتهم من دون الله تعالى .. فقلب النبي صلى الله عليه وسلم ما في زعمهم الكاذب وأخبر أن سبب الشفاعة هو تجريد التوحيد, حينئذ يأذن الله للشافع أن يشفع, إذا حجة هؤلاء المشركين في كونهم يصرفون أنواعاً من العبادة لغير الله عز وجل أنهم يطلبون الشفاعة منها أن تتوسط لهم عند الله عز وجل وهذا باطل أبطله النص القرآني وكذلك النص النبوي, إذا هذا خلاصة ما يتعلق بالقاعدة الثانية وهي بيان حجة المشركين ونستفيد منه بيان مذهبهم .

[القاعدة الثالثة]

أن النبي صلى الله عليه وسلم ظهر في أناس متفرقين في عباداتهم، منهم من يعبد الملائكة، ومنم من يعبد الأنبياء والصالحين، ومنهم من يعبد الأشجار والأحجار، ومنهم من يعبد الشمس والقمر، وقاتلهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولم يفرق بينهم، والدليل قوله تعالى: { وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلّهِ } . ودليل الشمس والقمر: قوله تعالى: { وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ } .

ودليل الملائكة: قوله تعالى: { وَلا يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَاباً } . ودليل الأنبياء: قوله تعالى: { وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ } . ودليل الصالحين: قوله تعالى: { أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ }

. ودليل الأشجار والأحجار: قوله تعالى: { أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى * وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى } الآية ، وحديث أبي واقد الليثي رضي الله عنه، قال: (خرجنا مع النبي صلى الله عليه وسلم إلى حنين - ونحن حدثاء عهد بكفر - وللمشركين سدرة يعكفون عندها وينوطون بها أسلحتهم، يقال لها : ذات أنواط، فمررنا بسدرة، فقلنا: يا رسول الله، اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط. . . الحديث) .

ثم قال رحمه الله تعالى (القاعدة الثالثة), القاعدة الثالثة وهي كذلك يقينية قطعية, هذه القواعد الثلاثة الأُوَل مُجمَعٌ عليها عند أهل السنة والجماعة وإنما يخالف فيها نفرٌ من .. من الصوفية لأنها تهدم مذهبهم الشركي, ولذلك يطعنون في القاعدة الأولى وفي القاعدة الثانية وكذلك في القاعدة الثالثة, وهي قطعيةٌ معلومة من استقراء الشرع بمعنى أن نصوص الوحيين لو استقرأ مُستقرئ من أهل العلم القرآن من أوله لآخره لعلم أن ما ذكره المُصنف هنا رحمه الله تعالى منصوصاً عليه في الكتاب و.. والسنة, إذاً القاعدة الثالثة كذلك يقينية قطعية ودليلها الاستقراء والتتبع ومن معرفة حال العرب كذلك, لأن النظر هنا في حكاية واقع, يحكي واقعاً عن العرب المشركين الذين بُعث فيهم النبي صلى الله عليه وسلم, ما حالهم ؟, ما هي هذه المعبودات التي كانوا يعبدونها ؟ هل هي خاصة بالأحجار والأصنام, كما يدعيه مشركو الصوفية المتأخرين ؟ أم أنها عامة ؟ دل الدليل القرآني وكذلك بالاستقراء أو النظر فيما نُقل عن أحوال العرب أنهم لم يخصوا نوعاً من الأنواع بعبادة دون ما سواها, بل منهم من عبد العقلاء ومنهم من عبد الجمادات, منهم من عبد من العقلاء الصالحين من الأنبياء والمرسلين, منهم من عبد من الطالحين الفاسدين, ومنهم من عبد من الجمادات من هو سماوي كالشمس والقمر, ومنهم من عبد ما هو أرضي كالأحجار ونحوها, فتنوعت المعبودات, وهذا أمرٌ قطعي دل عليه الكتاب والسنة, تجد من يحرف في ذلك يجعل دين المشركين الذين بُعث فيهم النبي صلى الله عليه وسلم خاصاً بعبادة الأحجار فحسب, وأما من عبد الصالحين فهذا شأنه آخر, شأنه .. آخر, ولذلك كل ما جاء لفظٌ في القرآن, الأصنام ونحوها, فسروه بـ .. بالأحجار والأشجار, من أجل أن ينفوا أنهم قد عبدوا شيئاً من الصالحين, وهذا أمرٌ باطل يدل عليه الاستقراء والتتبع لنصوص الوحيين .

إذاً مفاد هذه القاعدة القطعية اليقينية أن النبي صلى الله عليه وسلم بعثه الله إلى أناس متفرقين, بعثه الله تعالى إلى أناس متفرقين في عبادتهم ومللهم ومذاهبهم, يجمعهم وصفٌ واحدٌ وهو الإشراك بالله وإن تنوعت معبوداتهم, لا فرق بين هذا وذاك ويجمعهم واصفٌ واحد وهم أنهم مشركون, وهو أنهم مشركون, فحكم الله تعالى عليهم جميعاً مع تنوع المعبودات, حكم الله تعالى عليهم جميعاً بأنهم كفارٌ مشركون, وأمر نبيه صلى الله عليه وسلم بقتالهم من دون تفريقٍ بينهم كما قال تعالى {وَقَاتِلُواْ الْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً }, قاتلوا المشركين, فكل مشرك أمر الله تعالى بـ .. بقتاله وهذا عامٌ في .. في جميعهم, والعلة أن الإخلاص لله جل في علاه والصدق في التوجه إليه هذا قائم بالقلب, الإخلاص والصدق قائم بالقلب, فإذا قام في القلب ضد ذلك من الشرك والتعلق والاعتقاد بغير الله فقد أشرك بالله, فالعبرة بالمعاني .. العبرة بـ المعاني, حقيقة الشرك الشرعي الذي بينه الله عز وجل هو صرف العبادة لغير الله تعالى, دعوة غير الله تعالى, اتخاذ الند مع الله تعالى, هذه حقيقة الشرك, حينئذ مهما تنوعت هذه الأنداد ومهما تنوعت وسائل صرف العبادة لغير الله لا تخرجه عن كونه شركاً, فالشرك له حقيقة شرعية واللفظ يدور مع المعنى لا يدور مع الألفاظ فقط ويقف معها, لا, إنما المراد المعاني .

فقد أشرك بالله .. سواء كان المُشرَك به صالحاً أم طالحاً, جماداً أم عاقلاً, أرضياً أم سماوياً, إنسياً أم .. أم جنياً, ويوضح معناها قوله تعالى { وَاعْبُدُواْ اللّهَ وَلاَ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئاً }, وقوله سبحانه { وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَداً } فإذا احتج المشرك في هذا الزمان بأنه توجهَ إلى الصالحين وأولئك قد توجهوا إلى معبودات قلنا له وأئمتك كذلك تتوجه إلى صالحين, أما أثبت الله عز وجل أنهم يدعون الملائكة ؟ أما أثبت الله عز وجل أن منهم من دعا عيسى عليه السلام وصرف .. وجعله إلها من دون الله, وهؤلاء هم قمة الصالحين من الأنبياء ومن الملائكة, فإذا احتج المشرك في هذا الزمان بأنه توجه إلى صالحين لا جمادات قلنا وأئمتك كذلك إنما توجهوا إلى صالحين كما انك توجهت إلى .. إلى صالحين, فإذا قال إنما نطلب الشفاعة والواسطة ولا نعبدهم استقلالاً وإنما جعلناهم وسائط, قلنا وأئمتك كذلك إنما جعلوا هذه المعبودات وسائط بينهم وبين الله عز وجل ولم يطلبوا منها استقلالاً, فالعلة هي العلة والحكم هو .. هو الحكم, إذاً هذه القاعدة قطعية يقينية تدل على أن الناس الذين بُعث فيهم النبي صلى الله عليه وسلم

كانوا متفرقين في معبوداتهم بمعنى أن .. أن المعبودات ليست على نمطٍ واحد وإنما هي متعددة, فقال رحمه الله تعالى (أن النبي صلى الله عليه وسلم ظهر على أناس) ظهر أي بُعث وخرج, (على أناس متفرقين) وحكم عليهم بأنهم مشركون كما جاء النص في .. في ذلك, (ظهر على أناس متفرقين في عبادتهم منهم من يعبد الملائكة) لو قال (فمنهم) لكان أولى (فمنهم من يعبد الملائكة) وهم عقلاء صالحون, (ومنهم من يعبد الأنبياء والصالحين, ومنهم من يعبد الأشجار والأحجار) وهي جمادٌ أرضي, (ومنهم من يعبد الشمس والقمر) وهي جمادٌ سماوي, تنوعت, هذه كلها ثابتة في .. بنصوص القرآن, (وقاتلهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يُفرّق بينهم) أولاً حكم عليهم بالشرك مع اختلاف المعبودات, إذاً تفريق المعبودات لا ينفي الوصف العام من كونهم مشركين, ثم رتّب على هذا الوصف الحكم وهو وجوب قتالهم, (والدليل قوله تعالى) يعني الدليل على قتال المشركين من غير تفريق بينهم حسب معبوداتهم قوله جل وعلا ({ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُله لِلّهِ }), { وَقَاتِلُوهُمْ } هذا أمر, والأمر يقتضي الإيجاب, { وَقَاتِلُوهُمْ } الواو هذا عام فيشمل كل المشركين بدون استثناء في كل موضع وفي كل زمان وفي كل مكان, { قَاتِلُوهُمْ } جميع المشركين دون تفرقة بينهم, { حَتَّى لاَ تَكُونَ } يعني يوجد, { فِتْنَةٌ } أي شرك, وهو عامٌ, يعني أي شرك, { وَيَكُونَ الدِّينُ } أي العبادة و.. والعمل, { كُله لِلّهِ } عز وجل, فلا فرق بين الشرك بالأولياء والصالحين أو بالأحجار أو بالأشجار أو الشمس أو القمر أو غيرها, (ودليل الشمس والقمر) أراد أن يبين المصنف أم ثَمّ نصوصاً من القرآن تدل على أن الله عز وجل أثبت أن من المشركين من صرف نوعاً من أنواع العبادة بما ذكر من .. من المعبودات, فقال (ودليل الشمس والقمر) أي دليل أن هناك من عبد الشمس والقمر ممن بُعث فيهم النبي صلى الله عليه وسلم قوله تعالى { وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ }, قوله { لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ } الـ (لا) هذه ناهية, والنهي يقتضي التحريم, والسجود هذا نوع من أنواع العبادة, وقد نهاهم الله عز وجل وهذا النهي إنما يدل على أنه كان موجوداً, إذ لو لم يكن موجوداً لما صح وتوجه النهي البتة, { وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ } أي ومن حجج الله تعالى على خلقه ودلالته على وحدانيته اختلاف الليل والنهار ومعاقبة كل منهما صاحبه, { وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ }, { لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ }, لا تسجدوا أيها الناس للشمس ولا تسجدوا كذلك للقمر, { وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ } فمن كان عابداً لله عز وجل فلا يصرف السجود لغيره جل وعلا, لا لشمس ولا لقمر ولا لغيرهما .

(ودليل الملائكة) أي والدليل على أن هناك من عبد الملائكة ممن بُعث فيهم النبي صلى الله عليه وسلم, قوله جل وعلا ({ وَلا يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَاباً }), { وَلا يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَاباً } أي شركاء لله عز وجل في .. في العبادة, الأرباب جمع ربٍ, والرب له مفهوم شرعي يوافق المعبود, فإذا قيل الرب حينئذ وافق المعبود, فالرب والإله أو الله إذا افترقا اجتمعا وإذا اجتمعا افترقا, كما يُقال في توحيد الربوبية والألوهية وكما يُقال في المسكين و.. والفقير, { وَلا يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلائِكَةَ } أي ولا يأمركم بعبادة أحدٍ غير الله عز وجل, لا نبي مرسل ولا ملك مقرب, { أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ } أي لا يفعل ذلك إلا من دعا إلى عبادة غير الله عز وجل, ومن دعا إلى عبادة غير الله فقد دعا إلى الكفر, والأنبياء إنما يدعون إلى .. إلى الإيمان ويأمرون بـ .. بالإيمان, وهو عبادة الله عز وجل وحده لا شريك له, إذاً { لا يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَاباً } أي شركاء لله عز وجل في العبادة, وهذا يدل على أن ثَمَّ من اتخذ الملائكة وكذلك النبيين أرباباً مع الله عز وجل .

(ودليل الأنبياء) أي أن هناك من اتخذ مع الله عز وجل نبياً, (قوله تعالى { وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ }) هذا فيه دليل على أن الله عز وجل يوم يجمع الرسل يقول أمام النصارى لمن اتخذوا عيسى عليه السلام - وهو نبيٌ رسول من أولي العزم من .. من الرسل - اتخذوه إلها, { أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ } هذا سؤال موجه من الرب جل وعلا ولذلك قال المفسرون : هذا مما يخاطب الله به عبده ورسوله عيسى بن مريم عليه السلام قائلاً له يوم القيامة, هذا هو الصحيح أنه يوم القيامة بحضرة من اتخذه وأمه إلهين من دون الله, { يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ } هذا فيه تهديد لـ .. للنصارى, { قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ } هنا سبّح الله عز

وجل قبل أن يدافع عن نفسه, قبل أن يجيب بدأ بـ .. بالتسبيح قبل الجواب لأمرين, أولاً تنزيهاً له عمّا أُضيف إليه, ثانياً خضوعاً لعزته وخوفاً من سطوته جل وعلا, { مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي } أن أدعي لنفسي ما ليس من حقها, يعني أنني مربوب ولست برب وعابد ولست بمعبود, { إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ } فرد ذلك إلى علمه جل وعلا وقد كان عالمًا سبحانه بـ أنه لم يقله ولكنه سأله تعريفاً لمن اتخذ عيسى إلهاً, { تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي } فإنه لا يخفى عليك شيء, { وَلا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ } فيه إثبات النفس لله عز وجل وهي صفة ثابتة له على ما يليق به جل وعلا على حقيقتها, { إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ } ما كان وما يكون وما لم يكن وما هو كائن, فدل هذا النص على أن ثَمَّ من اتخذ عيسى ـ وهو نبي من الأنبياء ورسول من أولي العزم من الرسل ـ اتخذه إلهاً من دون الله عز وجل .

(ودليل الصالحين قوله تعالى { أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ }), { أُولَئِكَ } هذا مبتدأ, { الَّذِينَ يَدْعُونَ } يدعون تدعون .. جاء بـ .. قراءتين, و{ يَبْتَغُونَ } بالياء قراءة واحدة, { أُولَئِكَ الَّذِينَ } هذا صفة لـ .. { الَّذِينَ } صفة لـ .. لأولئك, { يَدْعُونَ } هنا حذف الصلة, أي يدعونهم, (أولئك الذين يدعونهم), (أولئك الذين تدعونهم) أي المعبودات, { يَبْتَغُونَ } هذا خبراً أو حال, { يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ } يعني هم في أنفسهم يطلبون إلى الله تعالى الوسيلة, وهو ما يوصلهم إلى الله عز وجل, أي هؤلاء الذين يدعونهم هؤلاء هم أنفسهم يطلبون إلى ربهم الوسيلة, { أَيُّهُمْ أَقْرَبُ } أي إلى الله عز وجل, فإذا كان المدعوون من الصالحين ـ من عيسى وغيره سواء كان من أنبياء أو غيرهم ـ هم أنفسهم يطلبون الله عز وجل ماذا ؟ الوسيلة, بمعنى ما يوصلهم من العبادة ونحوها مما أذن الله عز وجل فيه, { وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ } وهذه الآية قيل نزلت في نفر من الجن أسلموا وكانوا يُعبَدون فبقي الذين كانوا يَعبدون على عبادتهم وقد أسلم النفر من .. من الجن, وفي رواية في صحيح مسلم نزلت في نفر من العرب كانوا يعبدون نفراً من الجن فأسلم الجنيون والإنس الذين كانوا يعبدونهم لا يشعرون, فنزلت { أُولَئِكَ الَّذِينَ ... } إلى آخر الآية, على كلٍ المراد هنا: أن هؤلاء الذين يُعبدون من الصالحين هم أنفسهم يطلبون القربى والزلفى إلى الله عز وجل, ولذلك قال { يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ } أي يطلبون من الله الزلفى والقربى ويتضرعون إلى الله تعالى في طلب الجنة وهي الوسيلة, أعلمهم الله عز وجل أن المعبودون يبتغون القربة إلى ربهم .

(ودليل الأشجار والأحجار) أنها عُبدت من دون الله عز وجل, وهذا محل وفاق, حتى المشركين .. أو حتى المشركون المتأخرون يقرون بـ .. أن الذين بُعث فيهم النبي صلى الله عليه وسلم إنما كانوا يعبدون الأشجار والأحجار ولكن الخلل عندهم أنهم حصروا عبادة أولئك المشركين في الأشجار والأحجار دون أن يكون ثَمَّ للصالحين نصيب من هذا الشرك, ولذلك هذه القاعدة قائمة على إثبات أن مِن أولئك المدعوين من هو صالح, لأن من يدعو النبي صلى الله عليه وسلم يستغيث به قد يحتج بأنه إنما دعا صالحاً, حينئذ نقول : عيسى من قبله قد دُعيَّ وقد حكم الله عز وجل عليهم بأنهم مشركون, (قوله تعالى { أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى * وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى }), { أَفَرَأَيْتُمُ } هذا استفهام إنكاري وتوبيخ, و{ اللَّاتَ } هذه كانت صخرة بيضاء منقوشة عليها ببيتٍ بالطائف, لو أستارٌ و.. وسَدَنَة وحوله فناء مُعظَّم عند أهل الطائف, وهم ثقيف ومن تبعهم على شركهم, قال ابن عباس : كان رجلاً يَلُتُّ السَوِيق للحاج فلما مات عكفوا على قبره . ذكره البخاري وقال في فتح المجيد : لا منافاة بين القولين . يعني كونه صخرة أو كونه رجل يلت السويق, لا منافاة بين القولين فإنهم عبدوا الصخرة والقبر تألُهاً وتعظيماً . يعني عبدوهما معاً, فإذا كان (اللات) اسم للصخرة فلا إشكال, وإذا كان كذلك كما جاء في البخاري عن ابن عباس أنه اسم لـ .. لرجل .. وحينئذ قُبِرَ عند الصخرة وعُبدت الصخرة مع .. مع القبر معاً, و{ الْعُزَّى } كانت شجرة عليها بناء وأستار بنخلة بين مكة والطائف كانت قريش يعظمونها, وأما { مَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى } بمعنى المتأخرة أي ذميمة حقيرة فكانت بالمُشَلَّل عند قُدَيْد بين مكة و.. والمدينة, وكانت خزاعة والأوس والخزرج يعظمونها ويهلون منها للحج, إذاً هذا النقل دل على أنهم عبدوا الأصنام كما هو اللات ـ إذا كان صخرة ـ والأشجار كما هو في .. العزى, إذاً .. ثم قال رحمه الله تعالى (وحديث أبي واقد الليثي رضي الله تعالى عنه،أنه قال: (خرجنا مع النبي صلى الله عليه وسلم إلى حنين ونحن حدثاء عهد بكفر) هذا بيان علة السؤال يعني لما سألوا ؟ لم وقعوا في هذا الحرج ؟ لم طلبوا شركاً أكبر ؟ لأنهم حدثاء عهد بكفر, وعند أهل العلم أنه من موقع في الشرك وهو حديث عهدٍ بكفر ولم يتبين له أنه يرتفع عنه ما يترتب عليه, (خرجنا مع النبي صلى الله عليه وسلم إلى حنين - ونحن حدثاء عهد بكفر - وللمشركين سِدرة

يعكفون عندها وينُوطُون بها أسلحتهم) هذا محل الشاهد أنهم كانوا يعبدون الأشجار, قال هنا (وللمشركين سدرة) أي شجرة وهي نوع من أنواع الشجر, (يعكفون) أي يقيمون, والاعتكاف هو ملازمة الشيء, (عندها) أي قريباً منها أو تحتها, (وينوطون بها) أي يعلقون بها ـ أي بهذه السدرة ـ أسلحتهم تبرّكاً بها وطلباً للنصر, ولذلك قال أهل العلم بأنهم قد فعلوا ما هو شركٌ أكبر وليس المراد هنا البركة التي قد يُحكم عليها بأنها شركٌ أصغر, وإنما طلبوا النُصرة من .. هذه الشجرة, (يُقال لها) أي تُلقّب أو تُنعت, بأنها (ذات) أي صاحبة, (أنواط) جمع نوط والنوط هو التعليق, لكثرة ما يُعلق بها لطلب البركة, هذا تعليل أولاً للمشركين سدرة يعلقون عليها أسلحتهم تبركاً بها وطلباً لـ .. للنصرة, (يقال لها ذات أنواطٍ) قال أبو واقد : (فمررنا بسدرةٍ, فقلنا يا رسول الله, اجعل لنا ذات أنواط) يعني اجعل لنا سدرة نعلق أسلحتنا عليها ـ ذات أنواط ـ (كما لهم ذات أنواط), (اجعل لنا) أي سدرة, (نعلق أسلحتنا عليها) ذات أنواط تبركاً بها, سواء كان بركة نصر أو أعم من .. من ذلك, (.. الحديث) لم يذكر المصنف رحمه الله تعالى تتمة والتتمة خير شاهد على أنهم طلبوا شركاً أكبر, (فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الله أكبر إنها السنن, قلتم ـ والذي نفسي بيده ـ كما قال بنو إسرائيل لموسى اجعل لنا إلهاًكما لهم آلهة) لما شبّه النبي صلى الله عليه وسلم طلبهم بطلب أصحاب موسى دل على أن ما طلبوه شركٌ أكبر, ولذلك قال أهل العلم : لو فعلوا لكفروا . ولكنهم لم .. لم يفعلوا, ففرقٌ بين من يطلب الشرك ومن يفعل الشرك, من يفعل الشرك فقد وقع في .. الشرك, بمعنى أن الوصف قد وقع عليه, من فعل الشرك وقع الوصف عليه قطعاً, وأما من طلب الشرك فهذا يُحكم عليه إذا تلبّسَه وأما إذا لم يتلبّس فلا, ولذلك لا يُحكم عليهم بأنهم قد كفروا أو أنهم قد أشركوا بمجرد الطلب, نقول لا, لأنهم طلبوا ولم يفعلوا, فلو فعلوا ولم يمتثلوا نهي النبي صلى الله عليه وسلم لا شك أنهم قد .. قد كفروا, (قلتم ـ والذي نفسي بيده ـ كما قال بنو إسرائيل لموسى اجعل لنا إلها كما لهم آلهة إنكم قومٌ تجهلون) فدل هذا النص على أن المشركين لهم سدرة وهذا محل .. محل الشاهد, إذاً هذه القاعدة مفادها أن المشركين الذين بُعث فيهم النبي صلى الله عليه وسلم لم تتحد معبوداتهم بل تنوعت, منها ما هو صالح ومنها ما هو ليس بصالح, وهذا أهم شيء, لئلا يُحصر .. أو تُحصر هذه المعبودات في الأشجار والأحجار, بل هي أعم من .. من ذلك .

[القاعدة الرابعة]

أن مشركي زماننا أغلظ شركاً من الأولين، لأن الأولين يشركون في الرخاء، ويخلصون في الشدة، ومشركي زماننا شركهم دائم في الرخاء والشدة، والدليل: قوله تعالى: { فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ } .فعلى هذا الداعي عابد والله أعلم تمت وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

ثم قال رحمه الله تعالى [القاعدة الرابعة], وهي قاعدة ظنية وليست بـ بقطعية, ولذلك خالف فيها بعض أهل العلم, وهي المقارنة بين مشركي الجاهلية ـ الذين بُعث فيهم النبي صلى الله عليه وسلم ـ ومشركي زمان الشيخ رحمه الله تعالى, وفي هذا الزمن كذلك, أي المشركون المتأخرون, أنهم ينتسبون إلى .. إلى الإسلام ويصلون ويزكون ويحجون ويعتمرون, ومع هذا فشركهم أغلظ من أولئك المتقدمين, يرى المصنف رحمه الله تعالى أن شرك المتأخرين أعظم وأشد غلظة من شرك المتقدمين الذين بُعث فيهم النبي صلى الله عليه وسلم, فقال رحمه الله تعالى ـ وكما ذكرت أن هذا اجتهادٌ من .. من المصنف, وأما حكاية حال ما وقع فيه المشركون الذين بعث فيهم النبي صلى الله عليه وسلم أنهم إذا وقعوا في الشدة أخلصوا لله عز وجل, وإذا ارتفعت عنهم الشدة عادوا إلى ما كانوا عليه, وأما المشركون المتأخرون فسووا بين الأمرين, في الرخاء والشدة يدعون غير الله عز وجل, قال رحمه الله تعالى (أن مشركي زماننا) يعني زمانه, وهو في القرن الثاني عشر رحمه الله تعالى, (أغلظ شركاً) يعني أشد شركاً من .. (من الأولين), كلاهما موصوف بـ الشرك الأكبر, يعني كل منها داخل في مذهب واحد وهو الشرك بالله عز وجل, لكن الشرك درجات كما أن الكفر درجات, حينئذ أيهما أغلظ وأشد كفرا وأعظم ظلماً وجهلاً, المشركون الذين بعث فيهم النبي صلى الله عليه وسلم أم أولئك المتأخرون ؟ المصنف يرى أن المتأخرين أعظم وأشد شركاً من .. من المتقدمين, ولذلك قال (أن مشركي زماننا) أضاف الزمان هنا إلى عهده رحمه الله تعالى, (أغلظ شركاً من الأولين), ما دليل هذه القاعدة ؟ التعليل قال (لأن الأولين يشركون في الرخاء ويخلصون في الشدة) يعني عند الشدة

يقطعون علائق الشرك ولا يتوجهون إلا .. إلى الله عز وجل بالرغبة والرهبة وإخلاص الدعاء له سبحانه, وفي الرخاء .. وفي الرخاء يعبدون الله وغيره, حينئذ لم يسووا بين الحالين, بين الرخاء والشدة, في الشدة أخلصوا الدين لله ولم يعبدوا إلا الله, وفي الرخاء عبدوا الله تعالى وعبدوا غيره, (ومشركي زماننا شركهم دائم) متصل لا ينقطعون عنه البتة, (في الرخاء والشدة) استووا, أي يقع منهم الشرك في الرخاء كما أنه يقع منهم الشرك في .. في الشدة, فهم لا يخلصون العبادة لله عز وجل, لا في حال الرخاء ولا في حال الشدة, حينئذ من هذه الحال لو قيّد المصنف رحمه الله تعالى في هذا النوع بأن المشركين في هذه الجهة أو من هذه الناحية أشد من المتقدمين, قد لا يُعترض عليه رحمه الله تعالى, وأما إذا أُطلق القول فقد يقال أن ثَمَّ فرقاً من حيث الجملة, فأولئك كذبوا النبي صلى الله عليه وسلم والمتأخرون أقروا بدعوة النبي صلى الله عليه وسلم, أولئك المشركون المتقدمون أنكروا البعث جملة وتفصيلا وأولئك المتأخرون أقروا بالبعث, وقد يكون في ـ من حيث التفصيل ـ ثَمّ إنكار لكنهم في الجملة مقرون بـ .. بذلك, كذلك يصلون ويزكون ويتقربون إلى الله عز وجل بخلاف أولئك المتقدمين, وإن كانت عبادتهم مردودةٌ ..وإن كانت عبادتهم مردودةً عليهم إلا أنهم قد فعلوا ما يظنون أنهم قد طلبوا الرغبة إلى الله عز وجل والوصول إليه .

من حيث الجملة قد يقال أن ثَمَّ نزاعاً لـ .. المصنف رحمه الله تعالى, وأما من هذه الحيثية التي ذكرها والجزئية لا شك أن المشركين المتقدمين أخف من المشركين المتأخرين وأن المتأخرين أعظم وأغلظ من المتقدمين, وأما من حيث الجملة فقد يقال بأن المتأخرين أقل شركاً وكفراً من المتقدمين .

(والدليل قوله تعالى { فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ }), { فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ } وخافوا الغرق, { دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ } وتركوا الأصنام, { فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ } يعني حصلت لهم السلامة, وهذا إخبار عن عنادهم وأنهم عند الشدائد يقرون أن القادر على كشفها هو الله عز وجل وحده, فإذا زالت عادوا إلى كفرهم, قال عكرمة : كان أهل الجاهلية إذا ركبوا البحر حملوا معهم الأصنام, فإذا اشتدت بهم الريح ألقوها في البحر وقالوا يا رب يا رب. يحملون معهم الأصنام وإذا وقعت بهم الشدة من الأمواج ونحوها رمَوا بالأصنام, وهذا من سفه عقولهم, رموا بهذه الأصنام وقالوا يا رب يا رب, بمعنى أنهم أخلصوا الدين لله عز وجل, إذاً خلاصة هذه القاعدة قد لا ينبني عليها كبير فائدة بالنسبة للقواعد السابقة, لأن الميز بين المشرك والموحد قد يقع لبس عند بعضهم بأن هذا صالح, حينئذ كيف يُحكَم على من توجه إليه بنوع من أنواع العبادة ـ كالاستغاثة ونحوها ـ بأنه مشرك ؟ نحتاج إلى بيان, كذلك قد يأتي ويُفرّع ويؤصّل لمسائل توحيد الربوبية ويجعله الأصل ويكتب ويؤلف فيه ويحمل نصوص الوحيين عليه, حينئذ قد يقع في النفس هيبة, كيف وهو يقر بإفراد الخالق جل وعلا وتعظيمه ويتكلم في هذه المسائل على وجه الكمال, فقد يقع في النفس شيء لكونه مشركاً, وقد بيّن المصنف أن هذا لا يدخله في .. في الإسلام ولا ينفعه البتة, مهما قال ومهما تكلم ومهما كتب ومهما ألّف, إنما هو مشرك لكونه قد صرف نوعاً من أنواع العبادة لغير الله عز وجل .

وهذا كلام مختصرٌ على هذه القواعد الأربع, غفر الله للشيخ رحمه الله تعالى ورزقنا وإياكم العلم النافع والعمل الصالح, ونبدأ في الأسبوع القادم إن شاء الله تعالى في (مسائل الجاهلية) له رحمه الله تعالى والله أعلم, وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

س : هذا يقول (قريش حينما أشركوا لم ينفعهم انتسابهم إلى إبراهيم, بل حُكم عليهم بالكفر, كذلك النصارى لم ينفعهم انتسابهم إلى عيسى عليه السلام بل كفّرهم الله تعالى, لكن يقول بعض الناس أن الله وضع عن هذه الأمة الخطأ والنسيان وبالتالي من وقع في هذه الأمة في الشرك جهلاً منه أو بسبب شبهة فإنه لا يُكفّر لأنه من الخطأ الذي قد غفر الله لهذه الأمة, ما رأيكم ؟)

ج : هذا خلاف الإجماع, (رُفع عن أمتي الخطأ والنسيان) ماعدا المسائل المُجمع عليها أنه لا يُعذر فيها بخطإ ولا .. ولا نسيان, ومنها مسائل الشرك مسائل التوحيد التي بها يدخل المرء في الإسلام, ومسائل الشرك الأكبر والكفر الأكبر التي يخرج بها المرء عن دائرة الإسلام هذه لا عذر فيها البتة لـ .. جاهلٍ ولا لناسٍ ولا لغيرهما, وإنما يُحكم

عليه بما .. بما فعل, وهذه المسألة مسألة عصرية متأخرة وهي مسألة العذر بالجهل, هل يُعذر من وقع في الشرك الأكبر بالجهل أو لا ؟ عند السلف محل وفاق الإجماع, أن من وقع في الشرك فقد وقع الوصف عليه, قد بيّنا هذا مراراً, بأن من وقع في الشرك فقد وقع الوصف عليه, فنحكم عليه بأنه مشرك في الدنيا ونرتّب عليه أحكام الدنيا, من كونه لا يرث ولا يُوَرَّث ولا يُصلّى عليه ولا ولا إلى آخره من الأحكام المرتبة على المسلم, وأما شأنه في الآخرة فهذا إن لم تبلغه الدعوة فبينه وبين الله عز وجل, كونه يدخل الجنة يدخل النار, لم نُفوَّض نحن في الكلام في هذه المسألة, وإنما نحكم على من على من مات على الكفر وقد رأيناه وعلمنا أنه كافر مشرك, أو حكم الله عز وجل بأنه في النار, أو حكم النبي صلى الله عليه وسلم بأنه في النار, وما عدا ذلك فنسكت عنه, ولذلك ابن القيم رحمه الله تعالى أورد الخلاف في أهل الفترة, لأن أشد ما يُذكر مثالاً للعذر بالجهل أهل الفترة, من هم أهل الفترة ؟ قالوا الذين لم يدركوا النبي السابق ولم يلحقهم اللاحق, حينئذ لم تبلغهم الدعوة, وقعوا في الشرك, صرفوا العبادة لغير الله عز وجل, هل هم مسلمون أو لا, قال ابن القيم رحمه الله تعالى : الخلاف الوارد بين أهل العلم إنما هو في مصيرهم في الآخرة, هل يدخلون النار مطلقاً خالدون مخلدون أم أنهم يُختبرون يُمتحنون أم أنهم يُعذرون ؟ الله أعلم بذلك . الخلاف في الآخرة, وأما في الدنيا فقال رحمه الله : محل إجماع أنهم مشركون, إن وُجدوا لا يُصلّى عليهم ولا يُغسّلون ولا يُكفّنون ولا يرثون ولا يورثون . أهل الفترة الذين هم أحوج ما يكونون إلى العذر بالجهل, فيكيف بمن وُجد في عهد المسلمين مع وجود مسائل إيصال العلم ونحو ذلك, ثم بعضهم قد يكابر أو أنه يعاند ويقف مع دعوة شيوخه من الصوفية وغيره, هذا لا شك أنه لا .. لا يُعذَر البتة .

إذا القاعدة : من وقع في الشرك الأكبر فهو مشرك, سواء أن كان عالماً أم جاهلاً معانداً أم غير معاندٍ, بل قال ابن تيمية رحمه الله تعالى : لا يُتصَوَّر أنه يوجَد كافر وهو قاصد لـ .. للكفر أو أنه معاند, يعلم أنه على كفر أو أن هذا كفر ويقصده ؟! هذا لا وجود له, بل كل من وقع في الشرك فإنما أراد الخير وأراد ما عند الله عز وجل, وهؤلاء المشركون حكا الله عز وجل أنهم قالوا { مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ }إذاً أرادوا ماذا ؟ أرادوا ما عند الله عز وجل, لكنهم رجعوا إلى عقولهم فأفسدوا دينهم .

س : (ما حكم الإسلام فيمن لا يُكفِّرُ أمثال ... من دعاة الشرك ... بعد أن عُرف .. ؟)
ج : على كلٍ من ثبت عنه أنه مشرك سواء أن كان معاصراً أو غيره هذا يُحكَم عليه بـ .. بالكفر بالشرك, سواء حكم عليه أهل العلم أو لا, إذا سمعت بنفسك وتثبّت من ذلك, أنه يرى جواز الاستغاثة بالنبي صلى الله عليه وسلم فهو مشرك, سواء فعل هذا أو .. أو لا, أو أنه يقف عند القبور من الأولياء وغيرهم ويدعوهم ويذبح لهم ويرى أن هذا جائز, هذا مشرك سواء فعل أو لا, من اعتقد الشرك خرج من الملة, يعني من قال بأنه يجوز أن يُستغاث بالنبي صلى الله عليه وسلم في غفران الذنب, هذا أشرك سواء فعل أو لا, سواء أُخِذَ بقوله أو لا, حينئذ نحكم عليه بكونه [ليس] مسلماً سواء أن كان معاصراً أو غيره .

س: (هل يجوز قول أن هذا حصل صدفة ؟ أم أن الأفضل أن نقول قدراً ؟)
ج : هذا تكلم فيه بعض المعاصرين, إن كان المراد بالصدفة أنه مما لا يخرج عن قدر الله عز وجل فالخلاف لفظي, وإلا لم يكن كذلك فالخلاف جوهري, وإذا كان اللفظ محتملاً حينئذ حماية لباب المُعتَقد أولى تركه, حينئذ لا يُقال (صدفة) إلا إذ اعتاد اللسان وقد وقع سهواً فلا إشكال, إنما يقال (قدراً) لأن الصدفة قد يُفهَم منها شيءٌ آخر .

س : (لو فعلوا لكفروا, وإذا لم يفعلوا ونووا فإنهم يُكفرون .. لحديث إنما الأعمال بالنيات)
ج : لا .. هنا قالوا (حديثي عهد بكفر) هذه المسائل التي هي غير مسائل .. إذا قيدت الحديث في السؤال السابق .. قلت مسائل التوحيد التي بها يدخل في الإسلام, بمعنى أنها متعلقة بمعنى (لا إله إلا الله) وبتحقيق شروطها, ومسائل الكفر التي تخرجه عن دائرة الإسلام, حينئذ يقع في بعض المسائل التي يعبر عنها عند أهل العلم بـ (المتواتر), أو (من المعلوم من الدين بالضرورة), كإيجاب الصلوات وتحريم الخمر والزنا, هذه لو أنكر إيجابها الفرد ما حكمه ؟ لو قال الصلاة ليست بواجبة ؟ قلنا نفصّل, لو كان حديث عهدٍ بكفرٍ لا يكفُر, لماذا ؟ لأنه مما قد تخفى وتحتاج إلى تعليم, فإذا قال ليس عندنا صلوات خمس, نقول لا أوجب الله كذا وكذا إلى آخره, حينئذ سلّم بذلك, حين إنكاره نقول

لا يكفر, لا يكون قد رجع إلى .. إلى دينه, لماذا ؟ لأن هذه المسائل التي يُعَنوَن لها أهل العلم بـ (المعلوم من الدين بالضرورة) يُستثنى فيها حديث عهدٍ بكفرٍ وثانياً من كان يعيش في بادية, من كان يعيش في .. في بادية, فمثل هذه المسائل يُعذر بالجهل, لورود النصوص, وأما مسائل الشرك ومسائل التوحيد فلا عذر فيها البتة .

س: (هل يجوز التوسل إلى الله عز وجل بالنبي ؟)
ج : هذا بدعة, يُعتبر من .. من البدع

س: (ألا يرد على بعض المبتدعة في هذه .. في هذا الزمان .. مسائل التأويل .. هل نحكم بأنهم مشركون أم نُعمِل المانع ؟)
ج : ليس عندنا مانع في مسائل الشرك ومسائل التوحيد, هنا ليس عندنا مانع البتة, ودعوى التأويل أو الشبهة هذه مرتفعة بـ .. بالإجماع .

س: (شارب الخمر كعابد الصنم ؟!)
ج : ليس المراد به التكفير, واضح بيّن هذا .

س: يقول (نرى من بعض العلماء من يقول أن المولد النبوي ليس ببدعة, وإنما هي .. أو هو تذكير برسالة النبي صلى الله عليه وسلم وشخصيته)
ج : من فعله قبلك من .. من السلف ؟ الخير كل الخير في اتباع من سلف والشر كل الشر في ابتداع من خلف, فلو كان خيراً لسبقونا إليه, كون النبي صلى الله عليه وسلم .. مولده عليه الصلاة والسلام فيتركه .. وأبو بكر وعمر وعثمان وعلي ويتركون ولا يفعلون مع وجود المُقْتَضِي وعَدَمِ المانع, كما قال ابن تيمية رحمه الله, وجود المقتضي يعني السبب وعدم المانع, ما الذي يمنعه ؟ هل هناك سلطة فوق النبي صلى الله عليه وسلم تمنعه ؟ هل هناك مانع لأبي بكر وعمر وعثمان وعلي ؟ لا, ليس هناك مانع, حينئذ وُجِدَ المُقْتَضِي له وعُدِمَ المانع منه ومع ذلك تُرِكَ الفعل, وكل فعلٍ ـ هذه قاعدة ـ كل فعلٍ وجد مقتضاه في عهد النبي صلى الله عليه وسلم مع عدم المانع ولم يفعله, ففعله بعدَه يعتبر من .. من البدع, وهذا إذا وجد السبب, فلا يأتي شخص يقول الميكروفون هذا بدعة, لأنه ما عُرف في عهد النبي صلى الله عليه وسلم, لو وُجد في عهده عليه الصلاة والسلام وتركه ـ في الصلاة على جهة الخصوص أو الخطابة ـ قلنا هذا بدعة, فعله لعده يعتبر بدعة, لكن إذا لم يوجد حينئذ يرتبط بالمصالح .. العامة .

س: (هل يجوز للعامّيّ أن يكفّر شخصاً بعينه إذا رآه يستغيث بغير الله أو يذبح له ؟)
ج : مسائل الاستغاثة واضحة بينة, إذا كان يعلم هذا فيجب عليه أن يعتقد, قد لا يدعو الناس ويبين, لكن يجب عليه أن يعتقد أن هذا شركٌ وأن الواقع فيه مشركٌ شركاً أكبر .

س: (هل يعتبر طلب الدعاء ممن أظن به الصلاح قدحٌ في كمال التوكل ؟)
ج : قد يُقال هذا, ولذلك لا يُقال أو لا يُستحسن أن يُطلب الدعاء من المخلوق البتة, أياً كان, وأما ما ورد (لا تنسنا من دعائك يا أُخيّ) النبي صلى الله عليه وسلم, هذا حالة خاصة, وقد يقال أن ثَمَّ فرقاً بين النبي صلى الله عليه وسلم كونه طالباً لئلا يقع في نفسه شيء, وأما غير النبي صلى الله عليه وسلم فقد يقع في .. في نفسه شيء, ولذلك الأولى سد الباب, لماذا ؟ لأن الدعاء لك أنت, والدعاء عبادة, فالأصل أن تجعل بينك وبين الله واسطة أو أن تباشر الدعاء ؟ الأصل أنك تباشر الدعاء, إذاً لماذا تجعل بينك وبين الله عز وجل واسطة ؟ لو ظننت الصلاح فيه, لكن هذا يكون لنفسه هو, إن دعا هو على جهة الإجمال فهذا لا إشكال فيه .

س : (هل يعتبر الخوف من أذى الجن شركاً أكبر ؟)
ج : هذا يختلف .. إذا كان مُطلق الخوف, كالخوف من السبُع ونحوه, هذا لا يعتبر شركاً إنما يعتبر خوفا طبيعياً فلا يضر, لكن إذا زاد عن حده قد يكون محرماً ولا يصل إلى حد الشرك الأكبر, وإذا اعتقد فيهم أنهم قد يتصرفون فيه

بما لا يقدر عليه إلا الله عز وجل هذا شركٌ أكبر, حينئذ الخوف قد يكون طبيعياً ولا يضر, تخاف من السبع [...] من القط, قد تخشى منه, نقول هذا خوف طبيعي, لا يصل إلى .. إلى التحريم, قد يكون محرماً إذا كثُر وغلب على الإنسان, وقد يصل إلى الشرك إذا اعتقد فيه أنه قد يفعل شيئاً ليس في قدرتهم, مع أنهم عالم موجود لكن غير مرئي, لا يكفي أنه موجود, فما تراهم إلا إن ظهروا لك على جهة الخصوص, هذه خصوصية .

س: (كيف نرد على من حمل قوله تعالى { وَابْتَغُواْ إِلَيهِ الْوَسِيلَةَ } على جواز اتخاذ الشفعاء والوسطاء ؟)
ج : ترد عليه بتفسير السلف, أأت بمن فسّر هذه الآية بمثل هذا القول, إذا رضي الله قول العبد وعمله فما حاجة الشفاعة ؟ لماذا تعترض ؟ إذا جاء قوله جل وعلا {وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى } لماذا تنازع ؟ قل سمعنا و .. وأطعنا, ثم كما قال المصنف (والشافع مُكرّم) وكذلك المشفوع له أراد الله عز وجل أن يجعل له سبباً في .. دخول الجنة ونحوها .

س : (هل التصوف الأصلي محمود ؟ وأن أئمتهم الأوائل موحدون ؟)
ج : هذا تعبير الشاطبي رحمه الله تعالى في (الاعتصام) يقول (الصوفيّة الأُوَل) ويقصد بهم الحسن البصري ونحوهم, لكن التسمية هذه خاطئة, ولا يُسلَّم لهم أنهم يُسمّون صوفية, إنما يُقال زُهّاد أو عُبّاد ونحو ذلك, وأما الصوفية المتأخرون فأكثرهم مشركون, أكثرهم .. مشركون, لأنهم يُجوّزون الاستغاثة بالأموات, ويفعلون ذلك عند القبور, ويجوزون الاستغاثة بالنبي صلى الله عليه وسلم, ويدعون النبي صلى الله عليه وسلم من دون الله, فهم مشركون, فكل من أقر بهذه العقيدة فهو مشرك سواء فعل أم .. أم لا .

والله أعلم وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين